عبده خال

الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة



الأوغاد يضحكون

عبده خال

الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة

جوري:

تأتين كأغنية في حنجرة شيخ يغرغر بها ليتذكر حلاوة الحياة.
أبوك لا يكترث بالأوغاد.. فتعالي نتجاور ونقتطف غيومنا ونضحك سوياً على فتات الناس.. نضحك على هؤلاء الذين يمكرون الحياة.

هبه

المحتويـات

الأوغاد يضحكون



١

البلـوزة

تعبره كل يوم فتصنق في شغاف قلبه أخدوداً من الوله، يتبع ممشاها فتسيل رغبته ويزداد توتره. تصليه حمم جسده ويفور ..يفور ..يفور بعجلة يملّه طوفان الرغبة، يغرقه في ماء آسن ويذوي قبل أن تغادر عينيه، يذوي ككلب ركض وركض فلم يكن نصيبه إلا نصف ظل ولهاثاً مديداً.

اليوم وقفت على باب مغسله.

ربما قال كلاماً جماً. ربما تدلت من لسانه قطعة السكر فلعق شفتيه، لعق ريقه الدبق وماء خياله المنسكب. ربما فكر أن يقول كلاماً طازجاً. ربما سرق شيئاً من مفاتنها الخاثرة ليغذي به خياله حين تتيبس الطريق. وربما انكسر أمام فتنها الطاغية فلم يقدر أن يقول

شيئاً إلا هناك عميقاً في داخله تلجلج الكلمات، وبقي يموج برغبة ظن أنها خرجت من مسام جلده ..يتذكر تماماً ارتباكه وحيرته وبعضاً من مفاصل كلمات تثير الضحك تفوه بها، عندئذ ربما غدا نادماً على خروجها.

من كل هذه اللحظات الخاطفة بقيت في ذاكرته نتف من لحظات الشتت التي اعترته. شيء وحيد بقي جلياً يعرك بهجته ويطفئ نشوته، يحدث هذا كلما تذكر هزيمة عينيه اللتين طالما عادتا حسيرتين بعد كل غزواته لاختراق سماكة الغطاء الذي يحجب حسن قوامها الريان، المتمايل في الهواء كأنه غارق في نغم لا يمل من الرقص.

يضرب جبهته بعنف كلما تذكر انشغاله بالكشف عن وجهها وتفريطه في التمتع بمشهد تدفق نهر صدرها المتعطش لري جبليها الشامخين.

كما ندم على تخاذل يديه اللتين لم تواصلا الزحف للمس أناملها حين مدت له بالبلورة، ندم وقضم أصابع يده اليمنى التي امتدت متخاذلة لاستلام ذلك الكيس الناعم، وعندما لم يشف غليله منها قضمها مراراً وربطها في سارية المقصلة واستمر في عمله اليومي بيده اليسرى يجدف بحر الأمنيات القادمة بمراجعه المعكر.

≈

كالحلم البعيد البائت يذكر خضرا وهي واقفة في الحقل تغطي رأسها بشرشف برتقالي صبغ بأصبغة رديئة كاشفاً عن لون حائل

بعد أن هتكت سره شمس حارقة عكست ألوانه وشحب وظل شاحباً يمور بروائح عطور محلية باهتة بينما تراقصت ابتساماتها بطريقة المشتتة، ورمت عينيها فظهرتا كعصفورتين حمراوين ترفرفان من عشيهما. كان ذلك منذ عهد بعيد، ربما سنتين أو عشر سنين لم يعد يذكر بالتحديد. فقد نسي الطرق المؤدية إلى هناك وقبع في هذه المغسلة يستقبل الوجوه المالحة والملابس الرثة التي حافظت على روائحها ودرنها.

لا زال يشمئز من ملابس العمال فيرفعها بعود خشبي ويقذف بها في برميل معدني ويتركها إلى حين، وحين يسحبها يكون قفازه البلاستيكي فاصلاً بينهما.

يصف ملابس الرجال بأنها مقابر لنتن الأرض، ويتعجب

- كيف يصبر هؤلاء الثيران على قطف رغباتهم وهم يحملون كل هذا النتن؟!!.

ويزداد حنقه حين يقف أمام المصبغة وهي تدور وتدور، تعجن كل تلك الملابس فتختلط كل تلك الروائح لتثمر عن رائحة يشبهها برائحة مسافحة التيوس المخصية. أحياناً يحتار فيصبح مشبكاً على منخري أنفه كي يتقي انبعاث تلك الروائح، لكن هذا الاحتراز لا يقيه نبعاتها، إذ تتسلط تلك الروائح مع تقليبه محترقة لتحف جمجمته عنوة، فيترك مهمة إكمال الغسيل لعامله وينزوي جانباً، ويريق على جسده ماء ممزوجاً بماء الورد، وكلما دنت خضرا من خاطره هرب منها متذكراً أنه سيأتيها حاملاً كل هذا النتن.!!

نمره بمشيتها المتثنية وجسدها البض بلا اكتراث مهجس
ـ يا!!!لالاه

وعندما مضت الأيام من غير أن تثمر تمتماته الخاطفة استعاض عن ذلك دمدمة كل الأغاني المهيجة في مثل هذه المواقف، تلك الأغاني التي تمجد الجمال وتسترق السامع للوعة مهممة. وكلما ابتكر وسيلة توصل صوته إليها بات كمن لا يسمع

مع الساعة الواحدة والنصف تكون قد أنهت دوامها المدرسي، يقذف بكل ما في يده ويظل منتظراً عودتها. تقف السيارة أمام المدرسة تماماً، في هذه اللحظة (بالذات) تكون عيناه مفتوحتين على اتساعهما، حين تدفع الباب تظهر ساقاها ناهضتين من تلك العلالة السوداء، حين قدماها تلتفتان مستديرتان تنهيلان بحذاء يتغير كل يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم عودها طاعناً الفضاء بقامة فارعة رطبة، تلملم عباءتها على صدرها مخفية ثمرتين ناهدتين في استوائهما أصابع يديها ناعمة مرتوية كالأقلام العاجرة منتهية بأظافر ملتهبة مصابة أبقت على مداد قاني الاحمرار. تعبر الرصيف تاركة جسدها يراقص الهواء والأمكنة بينما تتوقف لمحتها لتحرس مشيتها وتثبت الأمكنة في مواضعها كي لا تتساقط حجارتها كمداً على خطواتها، في كل هذا الارتباك يرهز بقدميها بيت ولحد إذ تدس خطوها في بوابة الواسعة مضيها ويحبس للدب وغلاق ردفيه

تغلغل عطرها في مستودع حاسته الشمية وأصبح يميزه من بين العطور كلها لكنه عجز عن أن يعثر عليه. وقف أمام محلات العطور محلاً محلاً، فتح كثيراً من زجاجات العطور ودس بها أنفه وظلت إجابته لكل بائع:

ـ ليس هذا العطر الذي أبحث عنه

استفزه الباعة وتساءلوا عن هذا الشعور متوددين حينما أبدى استعداده لشراء زجاجة العطر المعبأة بأي ثمن كان، وقبل استعراض زجاجات العطور يترك ألف ريال في يد حامل المحل ليتأكد من رغبته في الشراء، يقف أمام العطور المرصوصة ويشد قامته رافعاً رأسه ومغمضاً عينيه، يهيم بعض الوقت حتى كز على عضلاته تماماً ويسقط رأسه على صدره كمن دهمه نعاس ثقيل. يظل هكذا ويبدأ بملامسة زجاجات العطر، يستبعد الزجاجات ذات التموجات ملتوية قائلاً:

ـ الجمال انسجام وانسيابية، فالطرق الوعرة مهما كانت جميلة هي في النهاية وعرة

برفق وليونة يمسك تلك الزجاجات واحدة واحدة يستنشقها بعمق، يترك لرئتيه فرصة أن تتشبع بتلك الرائحة، ويبعث زفيراً هادئاً متقطعاً ونبيلاً، تفضح حسرته من خلال مسام وجهه ويعاود طفر ابتسامته ملامساً زجاجة عطر مؤملاً أنها هي التي أتعبه بين زجاجات العطر النسائي من دون أن يمسك تلك الرائحة لكنه لم ييأس.

في الغربة(*) أحس رفاقه بأنه يخفي شيئاً عنهم، فقربوا بأحاديثهم منه فنفر منهم وخبأ رغبته في داخله. وحينما أوشكوا أن يصلوا إلى هاجسه حمل عفشه البسيط وسكن وحيداً في بيت شعبي

(*) الغربة: سكن ذكوري يخص أولئك المغتربين الذين هجروا نساءهم وارتصوا بالغربة فخصصوا جماعات في سكن واحد ... وبعد انتقال أهل البلد في القرى إلى المدن للدراسة أو العمل أصبحت الغربة غير مقتصرة على المغتربين بل تشمل هذه الفئة أيضاً.

تصدعت جدرانه وتقوّض تحت أعمدته البالية كعجوز اتكأ على عصا بية.

مع الغبش تكون محلته مشرعة أبوابها وعندما تخطر وتدس جسدها في السيارة يغلق محله مسرعاً ويعود إلى غرفته الكئيبة يستحضرها نغمة لا يمل من ترديد مقاطعها

اليوم وقفت على باب محله.

ترجلت من السيارة وفي يدها كيس (بلاستيكي) فاخر، كانت عيناه ترصدانها، لم تمر بصورة عمودية صوب بوابة المصرف كانت مشيتها المتمايلة تتجه صوبه، مسرع وجيب قلبه، أحس بالعرق يتصاعد من جبينه محرجاً كل العطور التي استنشقها لتحل هي هناك. مع اقترابها بدت أكثر فتنة.

- لو سمحت أريدك أن تغسل هذه الملابس.
- .
- أرجو أن تحرص عليها فهي غالية.
- أبشري ..من عيوني.
- . . . . !!
- هل تريدين غسلها بالبخار؟
- لا أعرف، بدي أريده منك أن تحرص عليها.
- سأكون أكثر من حريص.
- شكراً.

انطلقت مستعجلة وتركت بين يديه شيئاً منها وعصب ييبس على عرقها يحرس الأمكنة من أن تتساقط على بعضها !!

قفز داخل معطفه، واحتضن جسده بكلتا يديه، لم يكن يعرف ماذا يصنع فقد تواصل حبوره حتى أنه خرج من مكانه وهرول أمام المنصة رافعاً طاقيته ملوحاً بها بصورة دائرية في رقصة متوترة تحيات ضرب الدفوف ورائحة الأغاني الجبلية

أقسم أنه لم يسمع كلمة شكر بهذه الرقة والنعومة والعمق والدلال، بل لم يسمع كلاماً عادياً بموسيقى ترتقي درجات الغناء هل راوده هذا الحب في السابق. لم تأته هي بنفسها وتتركه يتنزه في بشرتها الفضية وبحانه رؤية قرص تهوى في واد سحيق ويبص بلأسنان عشت بشقة تهدب كثمرة رمان متشقق فاصحة نضوج حبياتها

تقف على أهداب عينيه وتعقر سنوات عجافاً من ممرحة الغربة وجفاف البال من طيف أنثى تحرق الأيام البالية الخامصة

قبض على الكيس (البلاستيكي) متشبثاً، وكشف عن ملابس ملساء ناعمة تفوح بذلك العطر الذي أرهقه البحث عنه، دلف إلى داخل المقصورة ولم محتويات الكيس، غرس أنفه بين بينك القطعتين.

تنورة كريب أسود صيفية لم تكن مبطنة، ذات فتحة في أحد الجانبين تصل إلى الورك، محكمة بثلاث أو أربع أزرار مكسوة بلون أحمر، وثمة رسم يدوي بالخيوط الأبيض على الجانب الموازي للفتحة، وهناك رسم بارز يبدي تشكيلاً عشوائياً يوصل المدقق فيه بهيئة امرأة متكئات على نفسها، تضم وردة متفتحة بينما كانت البلوزة من «الشيفون» المشجر بألوان ممزوجة بالأبيض والأسود والأحمر لها فتحة صدر واسعة بياقة عريضة بلا كم تزينها شرائط

ندت من الجنبين، كل شريط جمع الألوان الثلاثة في حزمة واحدة بينما ظهر ذلك الرسم البارز المشمول أسفل الكتف اليسرى مفترشاً كل الألوان.

غمس وجهه وسط البلورة واستنشق عبيرها بنهم، وفردها بين يديه، تخيل نهديها وكلما رفع البلورة من جهة الصدر هبطت. تخيل نهديها يستديران وتنفر حلمتاها في رعشة شبقه، همس بداخله

- هي كفاكهتي ناضجتين.. لا.. ربما هما أكبر قليلاً

أغلق محفظته، وعبأ الكيس البلاستيكي تحت إبطه، عرج صوب السوق، وقف عند إحدى البسطات وطلب من البائع أفخر أنواع حمالات الصدر

أي مقاس تريد؟

ارتبك وأحس بالحرج يعتريه، حاول بيديه أن يهيئ حجم ديدنه النهدي.

- هكذا!
- ألا تعرف المقاس..؟

هز رأسه موافقاً، فتابع البائع حديثه بصلف.

- أهي زوجتك؟

شعر بالمهانة وتمنى لو يقبض بحلق هذا البائع غير المهذب، استقر رأيه على (ستيان) متوسط الحجم

- كهذا

تناول حمالة الصدر مستعجلاً الحوت، أغلق باب غرفته وفرش التنورة وركب عليها البلوزة، بعد أن حشرهما بحمالة الصدر فتكوّن نهدان مهيبان ثم برونقا به، فتش محفظته وأخرج منها قصاصات القماشة متنوعة عبأ بها (السنتيان) وألبسها البلوزة، فكور السنتيان مظهر ثدياً منتصباً بينما ظل الثدي الذي يجاوره مهيضاً يدعو إلى الضحك، أخذ ينقص القماشة حتى تساوى واستعدل مع الثدي الآخر. لم ييأس نهدي الثديين فقد هبطت رمانتاهما وتكرمشتا من جهة الجمع، وكلما جس أحدهما هبطت رمانته من غير أن تهتز وتربو، أو ترتعش كعصفورين ذبحا بنصل مثلوم. شعر بالضيق يذكر بالمانيكانات - تلك الدمى التي يعرض عليها الباعة أفخر الفساتين - ركض إلى السوق وعاد حاملاً إحداها ألبسها التنورة والسنتيانات وخلع عليها البلوزة. أدهشه أن يفقد المرأة نصف جمالها حينما تكون صماء فركض مرة أخرى ليدخل السوق لاهثاً سوء تعثيره ليشتري شعراً ليلياً مستعاراً لتغدو الدمية ويعود لاهثاً يصلح جمالاً تربع في مخيلته وعقد بين يديه

عندما انتهى من إلباس المانيكان، كانت تلك الفاتنة تقف أمامه تماماً تفور رغبته وسعار من جحيم الخيالات يمضي مخيلته، فيتلظى ويجري بسور مياهه ساخنة متدفقة

كانت تهمس في أذنه:

- لو سمحت أريدك أن تمس هذه التنورة وهذه البلوزة

بدل تلك الهمسة بما يشتهي أن يسمعه منها

- لو سمحت أريدك أن تنزع هذه التنورة وهذه البلوزة.

مزّ عنبه ليل بذيه صمح فيه منها كتصاب لم تقلها امرأة لرجل وفي الصباح وقبل أن يغادر فتاته قبلها في ثغرها ومضى إلى مصمته جدلاً تقطر من فمه أعشاب هربت من ذاكرته منذ زمن بعيد.

عندما استقر في مكانه خطرت وهي تملأ الفضاء بشميم قامتها التي لا تعرف الانحناء بينما كانت معاتبها تمرد لصباح هيء يرف خطواتها المتريثة. هزّ من جلسته ومد عنقه صوبها مخبرته متناسية ما همست به ليلة البارحة (ها هي تتحرك وتمور من معاتبها سحر ليلة البارحة) .هتف بداخله

- كانت البارحة أقل طراوة من الآن !!

≈

فتقرب خضرا أمامه، فتلة بالسه لتنفس لجوع عودها، وجرى العطب بين راحتيها من مسكة المنجل، وجرف سهل الانتظار جبلي صدرها اللذين كانا يهمسان لقدم من ورع في محيطتها رغبة الوقوف عندهما والتمني على سهولهما بأعشاب الرعاة العائدين قبل صباحة ليله ماطرة، حدث هلة مهدمة، تقول الرسائل القادمة من هناك:

- خضرا تقترب من الثلاثين وهي ما زالت تنتظرك
حرام عليك لم تعد صاحة للزوج إلا بك

سقطت كل ذاكرته حينما لوت عنقها باتجاهه .هتف من مكانه صائحاً

- يااااله

أبرم - فيما بعد - أنه لمح برق ابتسامتها يشق المدى.. وبعدها هطل ماء قلبه في كل الاتجاهات.

≈

يعود ثملاً، يقف أمام تلك العانة التي صنعها، يقبلها، ويحرك يده الركيكة بها كان قد هيأ عرفته (بلمبات) ملونة واهنة الضوء، يحمل تلك الدمية ويجلسها أمامه مباشرة ويسمر معها في براعم الهوى .. في آخر مرة أحس بصمتها مخروط عنقها ولثم خدها

- لم لا تكلمين يا حبيبتي؟!

غزت باله فكرة استوطنت صحاري مخيلته فأخذ يخطط لها كي تعرش بعودها وتخلصه من خرس فاتنه وقبل أن يغمض عينيه كانت خطته قد اكتملت وأضمر تنفيذها.

≈

هيأ نفسه تماماً، فقد وضع المسجلة فوق طاولة استقبال خدمات الزبائن ووصلها بالكهرباء واضعاً فيها شريطاً جديداً بعد أن تأكد من حساسية التقاطها لأي صوت يجول في محيطه. وانتظر مجيئها يوماً يومان، وفي اليوم الثالث وقف أمامه، رالحها نصيبه بالخدر، فاختلطت أوهامه مع واقعه وكلما أوشك أن يحدث ذلك الخلط يضرب حده بيده فيلمح برق ابتسامتها تسمع:

- هل انتهيت من غسل الملابس؟
- ستكون جاهزة بعد أيام فلاكل.
- لا، أرجوك فأنا أريدها عاجلاً لدي مناسبة

- أنا حريص على غسلها وكيّها دون أن يحدث بها أي عطب. ألا توجد لديك ملابس أخرى تودي غسلها؟
- لا.. سأعود غداً لآخذها

*

جلس مع تلك الدمية يصفف شعرها وأدار صوت المسجلة وأخذ يسمعها. تمخضت مخيلته عن فكرة مضنية. أحضر جهاز مسجل آخر وأخذ (يمنتج) من جملها جملة ترضيه وتطيب مزاجه! وبعد ساعات من المنتجة ظفر بهذه الجملة

- هل انتهيت؟ لدي مناسبة، سأعود غداً. أرجوك سأعود غداً.

كان المسجل يدور بتلك الجملة في مسامعه مراراً وهو في عباءة النشوة يستمتع بها ويحرق في بدنه مجاهداً في دهاليز للبقاء إلى جوزه بتوسل متكسر:

- إبقي فأنا لا أقدر على فراقك لحظة واحدة.

بينما صوتها يصله متقاعساً خدراً

- هل انتهيت؟ لدي مناسبة، سأعود غداً. أرجوك سأعود غداً.

*

مع ذهابها وإيابها تسأله:

- هل انتهيت؟

فسوف مواعيده السابقة.

وكلب جانب سائله، كسب وقوداً يجدي محبك لليلة القادمة.

⁂

حطت عصفورتها فتساقط بدحمه عبث الأصابع، ثم وقفت أمامه كرمح ثقب الصدر فجأة، نحى صوتها عن بعض رقته في حضرة قامة قدت من صخر لرجل تصحر فيه كل شيء واهتز في تصحره شارب كث وصوت له صرير ثالب:

- هل انتهيت من غسل الملابس؟
-
- ألا تسمع؟
- ليس بعد.

جاء صوتها مرتوياً بالتذمر:

- شهر كامل ولم تنته.. والله لو طلبت أن تخيطها من جديد لانتهيت.. أظن أنك بعتها أو أضعتها

صاح متكسراً:

- تقولين بعتها.. حرام عليك.. بعتها.. أنت لا تعرفين.

- إذاً أضعتها؟

ضرب الرجل المصاحب لها الطاولة بعنف

- الآن تحضرها.. أفهمت؟

خرج من محمله مهزوماً، وانعطف في شارع ضيق. كان يشعر بهما يتبعانه. لم يلتفت إليهما وأدار مفتاح الباب ودخل غرفته .شاهدهما تقف شامخة ساحرة وعطرها يخرج من إبطيها شكامل، احتضنها، لثم ثغرها بينما كان صوتها يأتيه متمتماً

– هل انتهيت؟ بدي مناسبة، سأعود غداً . أرجوك سأعود غداً.

طرق عنيف على باب بيته يكاد يصم الأذان، تشاغلت يده بجرعة الدمية، كوم البلورة والشورة في صدره، تهاوى مجأة، شعر بالدوران، ومار حاجبه مصهوره، فأخذ يجهش بالبكاء فيما كان طرق الباب يعالي بضجيج.

٢

الرائحة قادمة

قصة قصيرة[٢]
مشهد لا يمكن أن يعود شخص لسرده

على ضوء القمر المسترسل بسماجة، تبرع قامات من علي جذر محصحصة وتهبط كحجار ثقيلة - داخل السور - وتثب من مكان هبوطها عجلة ربما تنفض أرديتها البيضاء وربما لا تحرص على ذلك، تتشعب خطواتها في سباق محموم، وتندس هناك بسرعة فائقة وكأنها تلعب لعبة الاختباء ليعود الصمت عبثاً متأهباً لاستقبال قادمين آخرين يمكرون سكونه بطرق نعالهم ودمدمتهم لتوحشة غير متهيبين من جلال المكان.

(٢)

ـ هل جاءت للفتية بأجمعها؟

ربما كان هذا الخاطر مختمراً بي لأن أسابق تلك القامات فحطلتها وأحجز مكاناً قبل أن أجد نفسي مدفوعاً في العراء.

ـ لم أكن أتوقع في أحد الجميع هنا

بعد أن خرجوا من شقتي يرتعدون تذكرت تصبب العرق من وجهه ويديه المتحرشتين فقفزت من جسدي مرعوباً. الآن فهمت محتوى كلامه وسر دفء الرداء الأبيض الذي كان يتمنطق به، هربت من جسدي مرعوباً حين سقطت فكرة غامضة صادمة في قاع جمجمتي وعكرت دوائر البال. بنعتني هاجس ضياع الفرصة الأخيرة وقبل أن تنضج الفكرة التي حلت برأسي كنت قد عبرت منحنيات الحارة كوميض جرح الأفق بسحنته وغاب. غاب مطمئناً لأنه وجد أفقاً يلحده كما يليق ببرق خاطف.

≈

ضجيج وطرق باب لا يمل

كان الليل مستبشراً ببدره الذي اكتمل وندس كقنديل متوهج خفف وطأة العتمة الرابضة بين الأزقة ومحا وحشة المنحنيات الضيقة. كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً للسهر والخروج لجذب شوارب الذكريات القديمة أو تبادل همسات عشاق أضناهم البعد. كان بالإمكان أن يكون مثالياً لأي شيء يمارس في حي صغير ولم يعد مرتوياً بأهازيج السمار والدوران حول نار مستعرة في لعبة المزمار المهيجة للنزال والمقارعة. كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً

ولا تلك الرائحة النتنة التي علقت في الهواء وتوزعت في كل جنبات الحارة لتدفع بالناس خارج بيوتهم بحثاً عن نسمة هواء يجددون بها حياتهم التي يشعرون أنها تتقلص وتغور

رائحة كتلة (لا تملك ليس وصفاً دقيقاً لتلك الرائحة)

فلم تكن رائحة خضرة لتكدس النفايات أو جريان المياه الآسنة أو سهوك العمال المتحسس في ثياب أبدانهم بعد يوم من عمل مضن وشاق أو صنة أولئك الذين لا يعرفون نتف شعر الإبط فيبقى صنهم يفوح من تحت أرديتهم الثقيلة، ولم تكن رائحة لسمك دهش تحت أشعة شمس حارقة أو شياط قطن محترق أو رائحة الدهون المنسابة على أرصفة الحي من صاجات الباعة، ولم تكن رائحة مروحة للحم فاسد أو مدر بيض فقص قبل الأوان أو حامضة كحبر تحصر ما أعطي. رائحة جمعت كل تلك الروائح وساحت في الأمكنة ولم تمكن أحداً من استنشاق الهواء بيسر فصعب هاجساً يحرك كل الألسن بسؤال يرف كجناح عصفور:

ـ من أين تأتي هذه الرائحة؟

≈

لم يعد أحد قادراً على التنفس.

خرجت الحارة عن بكرة أبيها للبحث عن مصدر تلك الرائحة التي حولت حياتهم إلى فضاء خانق، ولم يخرجوا إلا بعد يأس قانط من أن يجدوا حلاً لدى الجهات الحكومية التي انقلبت على أعقابها بعد محاولات يائسة لاكتشاف مصدر تلك الرائحة.

في البدء اتهمت البلدية بسوء خدماتها وتقاعس عمالها عن حمل حاويات النفايات وقذف محتوياتها بعيداً عن الأحياء المزدحمة بالناس، وقد تصاعدت الشكوى وبرع أحد رجالات حارة المرموقين بإيصال شكوى تلك الرائحة إلى مدير فرع البلدية المسؤول عن هذا الحي ولم يبادر للاستجابة إلا حينما نشر خبر صغير في جريدة «الطورة» الموصوفة تحت عنوان (رائحة غريبة تسرق الهواء)

في اليوم التالي ربضت عشرون عربة من عربات البلدية وجمعت جميع القمامة ونثرتها على أطراف المدينة، إلا أن الرائحة ظلت رابضة في مكانها فقامت البلدية باستبدال الحاويات القديمة بحاويات جديدة. وعندما تفاقم الأمر وتناثرت الشكوى جهات متعددة تحركت الصحف لمتابعة تلك الرائحة فنشرت جريدة «الشراع» استطلاعاً مطولاً وقد ظهر أهل الحي مكممي الأفواه وهم ملقون على جوانب الطرقات كمن أصيب بوباء فتاك، ورافق إحدى الصور هذا التعليق (أحد مواطني الحي وهو يستجدي الهواء) واستضافت الصحيفة في ذلك الاستطلاع مسؤول البلدية الذي نفى أن يكون هناك تقصير من قبل جهته وحاول أن يزحزح التهم في تجاهات أخرى، فتوجهت إشارة الاتهام إلى مصلحة الصرف الصحي إلا أن هذا المرفق تملص من التهمة بوجود مصارف يستحيل معها بقاء أي سوائل، وليؤكد نزاهة مرفقه أنزل عشرات من عمال الصرف الصحي ليصرفوا المياه الراكدة، وبكي ينتقل إشارة الاتهام في جهة أخرى بعيدة عن مرفقه حمل مصابا مركز صحي بالحي بما ينتج عنه تفشي هذه الرائحة، مؤكداً براءة مرفقه من إحداثها فتحركت وزارة الصحة وأرسلت أطباءها وسحبت الأوكسجين مجاناً ليومين متتاليين وعندما لم تفلح في إحداث تغير انقلب أطباؤها وعادوا من حيث أتوا. وصرحت مصلحة الأرصاد

وحماية بيئية أن هناك أثراً للرائحة لا يعرف مصدرها بالتحديد ناهية وجود تلوث من أي نوع يتسبب في إحداث تمهير الرائحة، وإزاء هذه المشكلة التي يعتقل منها الجميع، شكلت المحافظة لجنة لاستقصاء أسباب انبعاث تلك الرائحة الغريبة وجاء في تقرير اللجنة ما يلي:

بسبب تجاور البيوت وعدم نظافة أهلها وانسياب كثير من السوائل مجتمعة ظهرت هذه الرائحة. والاقتراح بث الوعي وإلزام أهل الحي باتباع النظافة في كل معيشاتهم ونوصي بإلصاق لوحات إرشادية لإزالة مثل هذه الروائح مستقبلاً ....(٣)

وبعد التقرير سبب الجهات المسؤولة ذلك الحي ورائحته وبقي الناس يقرأون اللوحات الإرشادية التي ألصقت في جميع أنحاء الحارة ويجاهدون لاستنشاق الهواء.

وعندما تركت الحارة لتدبير حل مشكلتها ظلوا لأيام يتبادلون الرأي وصدّق معظمهم على مقولة أحد رجالات الحارة:

- هذه الرائحة رائحة شخص مات.

هذه المقولة تناقلتها الأعين مما جعل سيارات الشرطة تعشش في أوصال الحي كطيور عادت لأوكارها فجأة، وبعد تفتيش دقيق كذبوا تلك المقولة وتركوا أثراً صريحاً معلقاً في أذن أهل الحي:

- ما تقومون به يدخل ضمن إزعاج السلطات ومن يكرر الفعلة سيجد عقاباً صارماً

ثم يكترثوا كثيراً بهذا التحذير وجلس الكبار منهم لإحصاء المتغيبين

من الحارة. وعندما لم يجدوا شخصاً غائباً قال قائل[1] منهم
ــ ربما يكون الميت غريباً أو حيواناً محشوراً في مكان لا نعلمه. وتواصوا بالخروج للبحث عن مصدر تلك الرائحة.

الليلة خرجوا جميعاً للبحث.

※

أعيش في هذا الحي منذ زمن طويل.

حي يتهم بكل شيء إلا الفرحة. لم تر أحداً يبتسم أو يتبادل التحية، الكل يدس عيونه في الأرض ولا يرفعها إلا لماماً، ترتفع الأيدي في تلويحة مبتورة وتعود إلى مكانها بسرعة متناهية، ارتفاعها يشي أنها تحية وفي حقيقة الأمر هي ساتر يحجب العين من الابتعاد عن الطريق المرسوم لها. أقطن هذا البيت منذ عشرين عاماً، تزيد قليلاً، لم يدخلني فيه أحد الزوار ولم أجالس أحد بمعرفة أخباره، وخلال هذه السنوات بت في دعمي العزلة ولم أعد حريصاً على معرفة ما يدور في جواري وأيقنت أننا نعيش كحلقة الوحدة غير قابلة للالتئام أو كقبور متجاورة كل شخص في قبره.

حياة مملة وباردة. يمضي يومك وأنت منشغل بلوازم حياتية جامدة وإن أزهر أمل طارئ في حياتك فهو فرحه بأن يتحقق في الأيام القادمة، وبهذا تم ترحيل كل الأفراح للأيام القادمة التي لا تأتي.
أخرج يومياً من الصباح الباكر للعمل وأعود مع المساء، كشمس

مرهقة عليها أن تنجز دورتها اليومية مهما حدث، وتتوارى مع المساء لتختفي خلف الليل في إغماضة قصيرة وتعاود حركتها في صيرورة لا تنتهي.

مضى شهر كامل ولم أوف بالوعد الذي قطعته على نفسي، فحين كانت تتحشرج آخر أنفاسها أصابني الهلع بين يديها وتملكني شعور مباغت بأنني سأبقى في هذه الحياة وحيداً كآنية أفرغت من مائها وبقيت هكذا تستقبل الغبار والهواء العابر

وأصبح من عاداتي أن أقف على قبرها بعد صلاة الجمعة، ففي ذلك اليوم الوحيد الذي أجد نفسي متحللاً من أعباء العمل أنهض في السابعة والنصف وأظل منشغلاً بتنظيف البيت وإزالة الأقذار المتراكمة هنا وهناك ثم أدخل الحمام وأريق الماء على جسدي ساعة أو ساعتين من دون أن أعمل شيئاً سوى استقبال تلك المياه والعبث بمحتويات الحمام أو برغوة الصابون التي تتكوم على فوهة مخرج البانيو. وقبل أن يؤذن المؤذن أكون جالساً في مقدمة الصفوف قارئاً للقرآن، وبين الحين والآخر أترك عيني تتربصان بمجموع المصلين في ركوعهم وسجودهم أو تتابعان تعبيرات ملامحهم المتجهمة ..وأكون من أوائل الذين يخرجون حيث أسير مباشرة إلى مطعم (صباح الخير) وأتناول وجبة الغداء بثمن مبالغ فيه، حيث لمواظبتي على الغداء هنا نشأت علاقة ألفة مع صاحب المطعم الذي كان يجذب كرسياً إلى جواره ويدعوني لمشاركته في شرب كأس شاي أظل أرشفه بينما يشرع هو بمحاسبة الزبائن. كان جلوسي هيناً أمارسه كل يوم جمعة. فلا حديث يكتمل بيننا إذ مع أول زبون يكون مستعداً للمحاسبة يذهب حديثنا مفككاً سمجاً، لكننا ألفنا ذلك وتعودناه. وهكذا أودعه قبل أذان العصر بقليل وأتحرك صوب

المقبرة مؤدياً الصلاة هناك وبعدها أقف أمام قبرها أتلو بعض السور القصار وأسرد على مسامعها همساً كل ما حدث خلال الأسبوع المنصرم، أخبرها بكل التفاصيل وأمضي وقد تخلصت من الكدمات التي تحجرت في عمق خلال بقائي وحيداً.

وقفت مذهولاً أمام قبرها، كان قبراً فارغاً وقد كشف غطاؤه، بعد تراجع متكرر تطلعت في داخل القبر وهالني منظر ذلك النمل الأحمر والذي يتحرك بسرعة ويتريث قليلاً. يقضم شيئاً ما ويعود لحركته النشطة. كان القبر يقف بعيداً عني. تحركت صوبه متسائلاً:

- أين صاحبة القبر؟
- لقد جمعت عظامها وستدفن في مكان آخر
- كيف هذا؟
- هذا ما يحدث لقي...............[٣]

وبالتفاتة مدققة رأيت كل القبور مكشوفة ومهيأة لاستقبال نزلاء جدد، وقد اختفت تلك الحشائش الخضراء المزروعة على بعض القبور. كانت آثار نتف عشوائي لتلك الحشائش بادية حيث بقي بعضها متمسكاً بجذوره وبعضها مصبوغة بلون الرماد الفرص تخضر، أصفر بالأطراف، وعلى امتداد البصر وفي خطوط متوازية فتحت فجوات غائرة في الأرض. شعرت برعشة تعتري جسدي.

- هل فتحتم كل القبور؟

العرق المتصبب من جبهته والرداء الأبيض المتسخ به يشيان بانشغاله، أكان لا بد أن أتبعه لأعرف السبب؟ كنت أسير خلف مشاه العجل وأذرف الأسئلة المتلاحقة فلا يلتفت أو يجيب. أيقنت الآن أن الأمر لم يعد مجدياً فقد توجه صوب أحد القبور مستعجلاً

وسقط داخله! كنت ألمح يديه ترتعشان وتقتربان من صلفتي القبر بتحرش ثم أفهم جملته المؤرقة:

– أيام قلائل وستجد قبر روحك مغلقاً، لا لا بل كل القبور ستغلق. لن تجد قبراً مفتوحاً

هزأت به في داخلي، وعدت لقبر روحي، مددت رأسي فلمحت النمل قد صعد جانب القبر بمثابرة عنيدة، نمل لا حصر له أحسست به يقترب من قدمي اللتين تجاوزت فتحة القبر وينهش إصبعي التي بانت من مقدمة الحذاء. فزعت وخرجت على عجل بينما كانت يدا القبار لا تزالان تتحرشان «بصلفتي» القبر في محاولة مستميتة لإغلاقه !!..

بعدها لم يعد لي مكان أذهب إليه، ففي يوم الإجازة أظل أحوم داخل الحجرة وفي أحيان أجلس قرب النافذة أتطلع لشارع مقفر من المارة سوى سيدارات عابرة أو شجيرات عقر ترف ورقاتها بتقاعس في استجابة لتدفق هواء رطب وتبدو في تمايلها كعجوز غريبة جنست تفاخر بفتنة قديمة غربت محياها، وقد أقلعت عن الوقوف هناك حينما لامني الجيران:

– أنت تقف لتكشف عورة البيوت المجاورة؟
– أنا لا أرى أحداً.
– يكنهم يرونك وأنت تقف لتكشف عوراتهم
– والله لا أرى أحداً منهم.
– اللهم .. عليك ألاّ تقف هنا.

أقلعت عن فتح النوافذ، ولكني لا موسوس لي نفسي بإلقاء نظرة عابرة من إحداها فسب بحصار حامل ملحيم ليصب الحاماً ثقيلاً

حتى ردهات النوافذ وبستر الزجاج بألواح حديدية. وحينما انتهى وجدت أن البيت غدا معتماً وأكثر أماناً، وأصبح من عاداتي مجالسة التلفاز بوقت طويل وفي أحيان أستيقظ وأطفئه أو أتركه حتى أعود.

منذ أيام لم أعد أطيق المكوث داخل البيت فقد انبعثت رائحة وخمة ظلت تحوم في مكانها دون أن أتمكن من معرفة مصدرها. ظننت في البدء أن إغلاق منافذ البيت أدى لوجود مثل هذه الرائحة، ولولا خشية من تقوّل الجيران أنني أسير على هتك عوراتهم لعدت بالعامل بفتح كل النوافذ، إزاء هذه الخشية أقلعت عما نويت وأخذت أتشمم مصدر تسرب الرائحة فلم أستطع تحديده بدقة، وعندما فتحت الباب انبعثت بعث الرائحة فورةً حتى كدت أطرق الباب على جاري متوسلاً إليه أن يرحمني بتنظيف داره حتى وإن لزم الأمر إحضار أحد العمال للقيام بهذه المهمة على حسابي الخاص إذ لم أعد أشك بتاتاً أن الرائحة الكريهة تنبعث من شقته

- ماذا لو طرقت عليه الباب الآن؟ .ماذا ستكون ردة فعله لو اتهمته بمثل هذا الاتهام؟ وماذا يحدث لو لم يكن داخل البيت؟ أوه ستغدو كارثة لو لم يكن بالداخل، عندها اتهمني بالتربص بأهل بيته . ساعتها لن تجدي شكواي من هذه الرائحة[٦] لعل الأمثل أن أتدبر أمري.

قمت برش معطرات هنا وهناك وبكمية كبيرة على مدخل البيت وتجرأت ورششت بعضها على باب جاري على أمل أن تتغلب العملة الجيدة

على العمله الرديئة، وانتظرت ذهاب تلك الرائحة ثلاثة أيام، وعندما مضت توجهت إلى الصيدلية وأحضرت كمامة ووضعتها على أنفي ومع ذلك ظلت تلك الرائحة تجوب البيت بهمة!

هذا الحي قذر للغاية فمع مظاهر الرفاهية التي تبدو للعين إلا أن ثمة قذارة تنبعث من مكان خفي، ثمة شيء يفسد ويتحلل مطلقاً رائحة تذكرني برائحة القبور المبلولة.

كنت أظن أنني الوحيد من يضع الكمامة على أنفه بكل هذا الظن خاب، ففي صلاة الجمعة رأيت المصلين يدخلون للمسجد مكممي أفواههم وبعضهم حمل زجاجات العطر ورشها في زوايا المسجد.. ربما كنت أول من وضع كمامة على فمي واقتدوا بي من حيث لا أعلم..

حياة رتيبة ومملة، لا شيء يحدث، أيام ساكنة مستنسخة حيث نزع أوراق التقويم علنا نجد خلفها شيئاً مزهراً كل ورقة تنزع تنبهنا بالخسران (؟) أن لا شيء يحدث!!

جلست لانتظار الغد، فما زالت عقارب الساعة تقترب من التاسعة مساء، كان الوقت يسير بطيئاً متهالكاً، بينما التلفاز يشعرك برداءة الوقت.

ضجيج وطرق عنيف يتواصل على بوابة المنزل.

— من ذا الذي خرج من قبره في هذا الوقت ليأتي لزيارتي؟

قمت متخطياً وأدرت عكرة الباب فاندفعت مجموعات غفيرة من

الناس واضعين كماماتهم على أنوفهم وبقيت عيونهم تجول في المكان.

- هيه ..ماذا حدث ..ماذا بكم؟
- ألا تشم هذه النتن المنبعث من شقتك؟
- شقتي!!
- نعم رائحة أشبه برائحة كلب ميت
- ومن أين يأتي كلب لداخل الشقة؟
- هذا نريد.

انطلق الجميع لتفتيش الشقة، وفي لمح البصر قلبت رأساً على عقب، كان رئيسهم يسير متشمماً أركان البيت ووقف أمامي مستغرباً وصاح:

- هذه الرائحة منبعثة من جسدك..

غرس جميعهم أنوفهم في جسدي ككلاب تتأكد من حاسة شمهم وتصايحوا:

- هو مصدر هذه الرائحة.

صاح الرئيس

- أنت رجل ميت بلا شك!!

كنت على وشك فقدان وعيي حينما ألصقوا أنوفهم بجسدي وطارت الرائحة نفسها من أجسادهم، ولكي أتأكد تحاملت على نفسي وغرست أنفي في صدر كبيرهم وصحت به متقززاً:

- وأنت أيضاً رجل ميت فالرائحة نفسها تنبعث منك

تشمم ساعده وجفل. تشمم أنامله فجحظت عيناه

وانتاب رعب البقية:
ـ وأنتم أيضاً!

وكالضباع انشغل كل منهم بشم جزء من جسده وتفرقوا صامتين

※

كان الليل مستبشراً باكتمال بدره، يسرف في صرف ضوئه فتبدو الأشياء واضحة ظاهرة

جلس واجماً وأعصابه تكاد تتقطع، وأخذ يمد يديه عن أنفه ويبعد بعضه عن نفسه وتقفز في مخيلته صورة القبار والعرق يتصبب من جبينه متلفعاً برداء أبيض ويديه اللتين تتعرشان بمقطعي القبر وصوته الواثق.

ـ أيام قلائل وستجد قبر زوجتك مغلقاً. لا، لا بل كل القبور ستغلق، لن تجد قبراً مفتوحاً.

قفز من جلسته كالملدوغ ونبش خزانة ملابسه ووجد رداءً أبيض ناصعاً تمنطق به على عجل، وشق صفحات الحارة بخطوات ثابتة مستقيمة وضوء القمر يعكس ظله على الجدران فيلمح أخيلة لا حصر لها تتشجر على ظله. لم يعد السير مجدياً، هرول. وكلما لسعته سياط الخوف زادت سرعته

كان سور المقبرة منخفضاً تقفزه على عجل، وأهاله انعكاس ضوء

البدر على أشباح كثيرة تتدفع بأرديتها البيضاء تثب بلحظات على جدار المقبرة وتقعر للداخل وسير حثيثة الخطى بتدس أجسادها في تلك القبور المفتوحة وتعرش لبعض الوقت قبل أن تجدب «صفقتي» القبر فينطبق بصوت، بجعل له سكون المقبرة، بصعوبة وصل إلى قبر روحته فوجده مغلقاً، بينما كان القبر الذي يجاوره لا يزال شاغراً ملمت حوله وأرعبه عجمة أشباح تسابقه ملله وبسرعة خاطفة جذب كرسياً مبروماً - كان مُلقى هناك - وقذف به بداخل القبر ورمى بنفسه وبحركات متشنجة صعد على الكرسي ومد يديه وأطبق «ضلفتي» القبر، فهبطت ظلمة قاتمة سحى الكرسي جانباً والتحف برداته الأبيض وفرد كامله وتمدد في رقدته باستسلام.

١٤ يوليو ٢٠٠٠م

وجدت هذه الأوراق الصفراء - والتي ننشرها كما هي، علماً أنها وجدت مغلفة في كيس نايلون - وجدت في إحدى المقابر ومعها أدوات بدائية مكونة من قلم وكشاف صغير وملابس ممزقة تعود لمطلع القرن، وساعة وحذاء وكرسي بقيت من قوائمه قائمتان الأماميتان. وما زال علماء الأنثروبولوجيا صامتين إزاء إثبات حقيقة ما تحمله تلك الأوراق ويدرسون سبب استخدام الكاتب لضميرين في كتابته لهذه الأوراق وإن رجح معظمهم أن تكون الأوراق المصاحبة للجثة مجرد قصة لكاتب، وينقض هذا الرأي بقية الجثث التي وجدت في المقبرة نفسها وهي ترتدي ملابسها كاملة - على ما يبدو - وتشارك الجثة الأساسية ارتداء ساعاتها وأحذيتها، وقد وجدت بعض عملات ورقية قديمة متآكلة تعود لزمن استخدام العملات الذهبية في التعامل

وحذر علماء المستقبليات من تنبؤ صاحب الأوراق بهبوب رائحة تجتث الأحياء من على وجه البسيطة في يوم من الأيام دون أن يجدي التقدم الطبي المهول، معلقين على تلك النبوءة بالعنوان الذي عنون به صاحب الجثة أوراقه (الرائحة قادمة) ويشاركهم هذا التوجس مجموعة من المهتمين بدراسة أحوال الآدميين وإن رادوا هؤلاء رأياً مفجعاً يعني

من المرجح أن الموتى مر بهم موت جماعي فتفسخت أجسادهم وبقيت أرواحهم معلقة في أجساد أصابها العطب ولم يكتشفوا موتهم إلا حينما انبعثت روائحهم.

ورادوا:

هذه الرائحة تتكرر مع حدوث كارثة كونية لا يعلم بها أحد، تتسلل أبخرتها عبر الغلاف الجوي وتتفشى على الأحياء، دون أن يشعروا فتبقى الرائحة دليلاً على تحلل أجسادهم.

ويرى علماء النفس أن مثل هذه الحالات يمكن أن تحدث بنسبة ضئيلة لا تصل ٢ % (عبر تاريخ الإنسانية الطويل) تحدث للبشرية في حالة الإحباط الشديد حيث تشعر النفس بكآبة عميقة يصاحبها شعور بالتعطل الداخلي وتفقد بهجة الحياة مصحوبة بشعور طاغ بأن الروح فنيت ولابد من ترك الحياة بأي صورة كانت.

ويتم الآن تجهيز أحد الرواد للعودة إلى الزمن الذي

ذكره الكاتب لجمع بيانات تكشف أسباب تلك الرائحة وإن كانت هناك معارضة لإرسال شخص بديل، حيث يرى الأطباء أنه من الضروري استنساخ صاحب الجثة وإعادته لزمنه لاكتشاف الأسباب الحقيقية لهذه الرائحة ويشجع الجمهور إتمام هذه الفكرة بنسبة ٨٨٪ بحريف يكشف الحركة الوطنية لإدارة الثروة البشرية مليارات من الريالات حيث يرون ضرورة استنساخ جميع الجثث وإعادتها لزمنها مع نقل بصري مباشر لما يحدث لهم عند عودتهم لزمانهم

وتخضع جثة صاحب الأوراق لتحليل الجذور الجينية لمعرفة سجله للوحي قبل المغامرة في إعادته لزمنه وإن كانت تراجيهم معقدة لم يعلنوا عنها صراحة

ويقول البروفيسور خالد عبدالله

هذه الجثث هي تحدٍّ حقيقي لتطورنا الحضاري، فليس المهم كم تتكلف لاكتشاف أسباب تلك الرائحة بقدر ما تحققه من إنجاز علمي لإماطة اللثام عن كارثة جماعية لم تذكرها وسائل الإعلام في زمنها ولم تحاكم المتسببين في إحداثها واكتشافنا لأسبابها يمنحنا فرصة قضائية لمحاكمة أولئك المتسببين وتطبيق العقوبة عليهم في حالة نجاح التجارب التي تجرى الآن لإعادة الموتى الافتراضية

وإلى الآن مازال العالم كامل الصحراوي في زيارة للمريخ لتبادل وجهات النظر مع بعض علماء الكائنات الحية

حول هذه النكتة التي غدت شاغلة للجمهور

ملاحظة: لأن أرشيفنا الورقي لم يحفظ كاملاً، لم نستطع العثور على الاستطلاع الذي أشارت إليه الأوراق، هذا إذا كان المقصود صحيفتنا وليست صحيفة أخرى وجدت في العهد الماضي بهذا الاسم أيضاً. نقول هذا لأن جريدتنا في ذلك العهد لم تكن من الجرائد المرموقة!!

الهوامش:

(١) أدرجت هذه الأوراق تحت مسمى "قصة قصيرة" بناء على اقتراح العالم الاجتماعي ياسين الخطاوي، ومع اقتراحه أن تكون بهذه الصورة محكماً ما كان عليه العرف في كتابة القصص في ذلك العهد، وقد ثبت اسم من كتب تلك الأوراق وهي بطاقة شخصية تحمل اسم (عبد حال) لتحته التي وجدت ... الغير

(٢) كلام مطموس لم نستطع من التحقق ما يمكن أن يؤول

(٣) يوجد كلام مطموس لم نستطع تفحصه حرفياً هذه الأوراق ثم ... كاملة ولم يتأت أحد منهم وضع كلام بديل وعلّق بعض الدارسين بهذه الورقات أن الفقرة المطموسة فيها ... من قبل الجهة لتمكنه ... الرائحة تحسن في معناه أن الأمر لا يعدو كونه رائحة ليس بها من خطر على ... الشبهة ولا ... كل هذا ... في سجلات المحافظة على مثل هذه الظروف ما يحصل الأمر ويبدو وكأنه ... لكن الأمر ... عدم وجود تفسير منطقي لمثل هذا الوقت ...

(٤) ذكر اسم شخص، لكن الاسم لم يكن واضحاً لاستحالة ... التالي (قال ... سهى)

(٥) كلام مطموس

(٦) علماء الاجتماع لم يطرحوا لنا سبب هذا الحضور ... ويبدو أنه في حاجة لترتيب الأوضاع الاجتماعية السائدة في تلك الفترة وأسباب هذا الاحتلال الذي تشير إليه الأوراق

(٧) كلام مطموس

الصفحة الإلكترونية من جريدة الخطورة الصادرة في كل الساعة الواحدة ظهراً بتاريخ ١٢ - ٤ - ٢٠١٢م

الذباب

ما زلت أحس كرب التوصية وأقف أمامه بارتباك، وعيناي تركضان في هذا المكتب الأنيق ببلادة وثمة قلق مخروج بعبث يتمدد في صدري وثمة خاطر يخاتلني.

– خرجنا كنا في رحم وحدة، فهل هناك سادة وعبيد؟

آكان لا بد من أن أقف هذه الوقفة الغريبة، وقفة أشبه بالتماثيل المصنوعة بيد نحات يتبر السحرية من صحرواته المشوهة. بوقفتي تلك كنت ممثلاً للمهنة، أقف مرتبكاً محترماً نصف قامتي حيناً ومبلاً بدق أحياناً، أحدق بمقدمة حذائي وبر السجاد الناعم متبعاً التعرجات التي ترتسم على ذلك السجاد ذي الوبر العزيز ومبعثراً خواطري خارج هذا المكتب.

كنا مياه لرحمة طبيعية قذفت في ليل بهيم. متى أين تأتي هذه القوة لتشكل مياهنا وتجعل منا الأمر والمطيع، الحرير والدبس، السيد والعبد؟

مضى منتصف ساعة على وقفتي هذه من غير أن تنبس شفتاي بكلمة. خلال هذا الوقت الذي استطال تمنيت لو أنني أستطيع الركض خارج هذا المكتب علّني أجد رعباً في العمر، تطلعت إلى هذا الكرت الذي أحمله، هذه الورقة الصغيرة الأنيقة التي لا تحمل سوى جملة غامضة ومبتسرة وتشي أن ثمة دناءة تلتصق بها

عزيزي أبو حسام،
حامل الكرت إنسان عزيز، أرجو تدبير أمره

مع تحياتي

هذه الورقة الصغيرة العاطرة تحاول دفع الدناءة عنها، بنصاعة أرضيتها، وتصميمها البديع، وأحرفها المنسقة كخيوط حرير تشابكت وتمازجت كأغنية سمعت بلحن النهوند الحزين الباعث على دفع الأحباب والشجن للبكاء، ورقة أنيقة تخفي خلف جمالها دم فاسد وألم عظيم.

هذا الكرت لم أحصل عليه إلا بعد ركض استمر شهوراً عدة بدأت بوعد من جارتنا التي دأبت على مجالسة والدتي في الضحى لتناول أقداح القهوة ومضغ هموم العاتبات من الجارات اللاتي يأخذن على موعدهن في مشاركتهن تناول فنجان الصباح، وكانت والدتي تستغرب من جارتنا تلك بسبب كثرة معارفها وتبرّع لسانها غير متورعة عن ذكر إعجاب الرجال بقوامها الهيفاء من خلاله، ومدعية أن عيونهم ترفّ بين نهديها الشامخين، ومقسمة أن أحداً لم يجرؤ

على بناء عشه على قمتيهما حين تشيح عنهما عباءتها في محاولة إغراء صغيرة. كان لسانها السافر يغريني باستراق نظرات خاطفة لتلك القمتين اللتين تبدوان كهضاب الزبد وكلما انحنت لتناول فنجان قهوتي تبدوان كجنينين حبستهما رحم ضيقة تنتظر مخاض قيصري.

التصقت نظراتي المتورطة بين أوحال إغرائها مراراً، وفي كل مرة تتركني هناك أتلصص للوصول إلى نهاية جذعها من غير أن تكترث كثيراً بصفتي، وإن كنت أحس أنها تمنحني فرصة لتشمم روائح تلك الغابة حين تمد لي بشيء ما، فتدنو حتى تترك شيئاً من جسدها رهينة صدري وتسبل عينيها في حركة غير بريئة البتة

كانت أمي توبخها في أحيان كثيرة وعندما تجدها تقف على الباب تمسحها لساناً متزلفاً وتجالسها، حتى إذا خرجت رمتها بالظنون المشينة ولا توقفها إلا باستغفار ممل وسرد كل أذكار مستعصر الجنس وتنهي أدعيتها ببراءتها من نحس عينيها يبدو أن وقوفي كأعمدة الإنارة الخربة جعلها تمعن في التودد إلى جدرنا ودعوتها في كل حين لتبادل الأحاديث المترعة إليها بمحبة خاصة، ومع هذا الإغداق المفرط توصلت زيارات جدتي وعدت جلستها الدائمة، وفي لحظة اعتداد بنفسها وعدت والدتي وعداً قاطعاً بأن تبحث لي عن عمل من خلال معارفها بعد أن اشتكت لها أمي سوء حظي وعثراتي التي لا تنتهي وخشيتها أن أهيم في الشوارع، فرفعت خصلة شعرها وهي تطرقع بعلكة متت من مضغها

— أعدك أن أجد له عملاً في القريب العاجل فقط امنحيني بعض الوقت.

فحضنتها أمي متوددة ومتصنعة حبل ميصان جمائلها التي لا

تنصب، وقالت في نصحها بأن أخرجت من دولابها قطعة قماش ألمست أنها لم تشترها إلا بها، مبهجة أن هديتها ليس لها علاقة بنصيبها الذي تحترم المهام به، صمدت جارتنا يدها وتناولت قطعة القماش متأففة مظهرة ولعها بشراء الغالي من الثياب وذاكرة محلات الأقمشة التي تبتاع منها، صاحت أمي حجة من تبجحها حيال رخص تلك القطعة القماشية تكي جارتنا مسحت صلفها بجملة باترة

– الهدية ليست في قيمتها

وأطلعت أساريرِ وجهها من جديد

– ما هي إلا أيام ويكون ابنك موظفاً يشار إليه بالبنان

مرفعت أمي يديها للسماء تمطرها بالدعوات التي لم تكن جارتنا جديرة بأدناها

وتسلسلت التوصيات، وفي كل مرة كنت أحمل كرباً من شخص الى آخر حتى أتسرب كل تلك التوصيات حصولي على هذا الكرت.

عندما تسلمته شعرت بصلابه وكدت أقذف به وأعود للتسكع على أرصفة المدينة، لكن جملة صارمة انبرت من أحد الأصدقاء جعلتني أتمسك به بشدة.

– بواسطة هذا الكرت أنت تمسك بوظيفة أكيدة،
فإياك ثم إياك والتفريط بهذه الفرصة الذهبية.

كتشفت أهمية هذا الكرت حين كنت أعبر دهاليز دائرة الشرطة، فما أن يستوقفني أحد وأبرز له ذلك الكرت حتى

يسمح لي بالدخول إلى أماكن لم أكن لأجرؤ على الاقتراب منها، أو التفكير بالوصول إليها. وعندما وقفت أمام بابه رأيت مجموعة كبيرة من المراجعين تستعطف ذلك الرقيب العجوز لأن يسمح لهم بالدخول، لكنه كان يقف بكل صرامة أمام أي طلب رافضاً حتى الشروع في الحديث. كان فمه ينطبق على تعب سنين طويلة ويجاهد نفسه للوقوف لأداء التحية العسكرية إذا مرت بنا إحدى الرتب العالية.

عندما وقفت أمامه نحاني بيده جانباً ـ بالرغم من إبراز كرت التوصية ـ فامتثلت لأمره وأخذت أنتظر أن يسألني مرة أخرى عن أمري، لكنه لم يلتفت إلي فتجرأت ووقفت أمامه مباشرة ومددت الكرت في وجهه ـ هذه المرة ـ وقلت بصوت واثق.

ـ أحمل له هذا الكرت فأنا على موعد مع سيادته وأخشى أن يمر الوقت المحدد من غير أن تخبره

لم يكترث بي بل أبعدني عن وجهه بيده:

ـ استرح

شعرت أني أتصاغر وأن كلماتي التي أطلقتها كانت محض تندر الحصى، فرفعت صوتي بحزم محاولاً إكساب جسمي أهمية.

ـ أقول لك أنا على موعد مع سيادته ألا تفهم؟

نظر في وجهي بإرهاق، وكمن يزيح تعباً إضافياً تمتم

ـ الكل هنا يقول إنه على موعد.

وكمن يواسيني تمتم:

ـ انتظر قليلاً، لقد منع دخول أي شخص

كدت أتراجع لولا أن امتد يتملكني الخجل من تلك العيون المحدقة بهيئتي فتلبثت على الفور:

ـ سوف أتحمل مسؤولية هذا التأخير

وعندما رأى تصميمي تناول الكرت ودلف الى داخل المكتب، بينما كنت أستغرق النظر لتلك الوجوه التي ترمقني بمشاعر مختلفة، مهيئي لا تعزز الثقة بأهميتي، لمعني خاطر مقيت

ـ هذه الوجوه تأتي من دهاليز النسيان

ربما بادرت إلى ذهنهم صورة جارتنا التي تتقمص متلبثة وهي تقسم أن جسدها الهروب من أغلاله يختطف الألباب، وأن ضحكتها تفتح الأبواب الموصدة، وفي محاولة الإغواء الصغيرة التي تقوم بها تحمل وعودها مفاتيح ذهبية، وكلما حاولت إبعادها عن مخيلتي طفحت تتثنى بملابسها التي تحللت عن دورها خيال جسد يتراقص ويمور برغبة متأججة تهمست بجوار روح عشق الإبحار في الموانئ البعيدة .ربما كان الكرت يحمل رائحة المنامة تلك !!

عاد الرقيب مادًّا الكرت ليدي ومفسحاً المجال أمامي للدخول ومانعاً بيده الأخرى مجموعة حاولت التسلل ومرافقتي لفحني هواء المكيف البارد وشعرت أنني ألتف ممتناً، فقد كان المكتب واسعاً وثمة شخص يجلس خلف مكتب أنيق، فتوجهت صعوداً باتجاهه، ومددت يدي بالكرت الذي أحمله فصدرت عنه حركة لم أع فيها دعوة للجلوس أو الانتظار فوقفت متحفزاً وكلما حاولت أن أتحدث أتراجع أمام إهماله

ولا مبالاته. كان يجلس خلف مكتبه - بجسمه الفارع وملامح وجهه العتيقة القاسية - منكباً على الكتابة وثمة تأفف يلمع من خلال تجاعيده المنتشرة في عبوسها. استلفت النظر لرتبته المعلقة على كتفه وكلما حاولت أن أتذكر تسلسل الرتب العسكرية، أعجز ولا أقدر أن أحدد في أي سلم من سلالم العسكرية يقع التاج والمقص. كانت أعلى رتبة عسكرية عرفتها رتبة ملازم حينما سأل أهل الحي أن إسماعيل ولد السقا أصبح ضابطاً في الأمن العام وكف الناس عن تعييره بلقب (قرده) وأصبح محل حفاوة الجميع، وكتب أمي نفسي بأن يحتفل بي أبناء الحارة أسوة بإسماعيل الذي كان يشاركني اللعب والبلادة.

عندما صرحت لأحد الأصدقاء بهذه الأمنية ضحك في وجهي كثيرا وأردف:

- إذا عملت بالعسكرية ستكون جندياً ممسوحاً لا تحمل على كتفك إلا الأوامر

لكنني تماديت في عنادي ونعطية عجزي.

- سترى عندما أعود وأنا حامل نجمتين كما حملهما إسماعيل وربما أجد أكثر منه.

ضحك حتى امتلأت عيناه بالدموع

- يا عم نجمتين..

أحسست بحرقة على نفسي من تلك السخرية فعاودت بعنادي.

- سترى.

تابع سخريته:

ـ صحيح، فأمثالك يقصدون كل الليل ساهرين والخوف
أن تعود لنا وأنت تحس نجوم السماء مجتمعة

وتركني وهو يلعن العناد الأجوف والمكابرة التي قذفت بأمثالي في طريقه.

يبدو أن سحر هذا الكرت موقعه فجعل ثم يشير بي مقابله صاحبه كف عن العصي ها أنا أقف كأحد أعمدة هذا المكتب لا أجرؤ على الجلوس أو الكلام هذا الصمت المهيب جعلني أحرك عيوني بحثاً عن أي شيء أتسلى به وأقتل هذه الدقائق التي تطحنني في المكتب باستثناء إحداهما غربية والأخرى شمالية تحجبهما ستائر من الساتان امتزجت ألوانها بأرضية سوداء وتداخلت لتعطي أشكالاً هندسية خلابة، وفرشت أرضية المكتب بـ(موكيت) سكري ذي وبر غزير بينما استقر المكتب في صدارة الغرفة ممتداً بمسافة ثلاثة أمتار، تونه التبري اللامع يشي بثمنه الباهظ وقد استقرت عليه ملفات ومقلمه ودباسة وصوره لطفلين كقافز من عينيهما شقاوة محببة

في انشغالي خشيت أن يحدق بي مجلة أو يتحدث معي، فتركت كل شيء وترقبت أي نفثة منه، كان لايزال منهمكاً في الكتابة وقد طرأت عليه (برهة) مفاجئة فهش بيده صعوداً وهبوطاً كانت ثمة ذبابة زرقاء كبيرة قد استقرت على المكتب وحكت برجليها مؤخرتها وعبرت بورقه للأسفل وعاودت التحليق واستقرت على خشمه، وجنتيه، شاربه شعيته لحظاتست. كانت تحط على أي جزء من وجهه وتطير من أدنى حركة تصدر من يده وتستقر على المكتب ثم تعاود التحليق والهبوط على بركة وجهه الواسع بخفة

وسرعة خاطفة. المكان الوحيد الذي كانت تستقر فيه للحظات ولتنعم بقليل من الراحة كان بين شفتيه المنفرجتين اللزجتين فتهبط وتمد نورها وتحرسه في الشفة السفلى حتى ترتوي وتستند إلى قوائمها الخشبية في قفزة سريعة مرتجفة لتعاود التحليق مرة أخرى، يزداد حركة يديه وعلا وجهه بالضيق، فلاقت عيناه فرمقني بازدراء. كنت متحمراً فمددت له الكرت الذي أحمله، لم يمد يده واكتفى باختلاس نظرة سريعة ومبعثرة للكرت الذي أحمله، وعاد للكتابة.. وعدت أحدق في دبش المكتب الواسع وأتمنى لو أنني أستطيع أن أتحرك لأهرب من هذا الموقف. كنت أفكر جدياً في ترك مكتبه وكلما هممت بذلك ستقفز إلى مخيلتي صورة أمي التي ستصفعني بأقذع نعوت لو أخبرتها بنكوصي، وستذكرني بكل ما صنعه أبي معها، وقد تتمادى في شتمي ونعتني بـ(دودة الكتب) كلما ضقت ذرعاً بها وبتذمرها وتذكيري الدائم بما جناه أبي على حياتها وما خلفه لها من حرائق لم تطفئها عظام أبي الرميم كانت تقول دائماً

- لم يرض أن يذهب للآخرة من غير أن يترك له صورة تذكرني بخطاياه معه.

وسرعان ما تعود ذكرياتها القديمة عن اليوم الذي جمعها برجل لم يكن يعرف في الدنيا من شيء سوى الارتماء على السرير والشخير في كل الأوقات، وقد تقذفني بأي شيء في يدها صائحة بغيظ

- يلعن أبو هذا البطن الذي حمل بذرتك.

ما زلت أقف أمامه متخشباً متمنياً لو أنني أستطيع الهرب، وراودت نفسي بذلك مراراً، بعد أن هدأت خواطري المنتهية من غضبة أمي بتدبير حكاية محكمة الإتقان تقنعها بعدم جدية من ذهبت إليه ودا

لم تصدقني فلتفعل ما تقول، أريد فقط أن أهرب من هذا الذل المقيت.

أجدني أقف أمامه كالأبله ومن غير عمل شيء سوى التحديق به والاستمتاع باحتقار تلك الذبابة لأمثاله والاقتصاص لي بازدرائها من جرف شفتيه المتخاصمتين، رأيتها تقف عند جذر أسنانه كبهيمة ترتوي من نهر دبق، رجلاها مستندتان إلى جذور أسنانه المنصرة وفمها غارق في رغوة الدبق الذي لم يرجع منسوبه وكاد يطفح للأعلى بغير اكتراث من صاحبه، كان مهتماً بتسويد ثلث الورقة التي أمامه بكلمات غامقة وشبيهة الحروف، كان كل شيء في وجهه صلداً قاسياً باستثناء ذلك النهر الذي جرى بين شفتيه المتباعدتين. يبدو ـ الآن ـ أنه لا يستطيع بكلمة الكتابة فكلما استمرت ريشة القلم على الورقة رفع يده هشاً تلك الذبابة الرقطاء التي أصرت على مضايقته ومواصلة عبثها لتحطيم صخور وجهه. قذف بالقلم جانباً واستدار بجذعه لأعلى خلف كرسيه ضاغطاً على مفتاح جرس استجاب له حارس المكتب بسرعة عجيبة. ليظهر ذلك الرقيب العجوز بقامته المنحنية والتي جاهد كثيراً لاستوائها وتأدية التحية العسكرية حيث خطا خطوات سريعة لا تتناسب مع عمره الكبير وألقى بالتحية بانضباط ينقصه النشاط والحيوية، وقبل أن يمسح يده من على جبهته كان الصراخ يملأ فضاء المكتب

ـ ألم أقل لك ... لا تسمح لأحد بالدخول؟!

تلعثم الرقيب وبلهجة مبطنة اعتذر

ـ قلت لك إنه مبعوث من عند (أبو وائل) وأنت أخبرتني أن أسمح له بالدخول حين سعادتك بذلك

واطلع ريقه بصعوبة وأكمل:
- صحيح أنك لم تتكلم ولكنني فهمت من إشارتك أنك موافق.

رمقني بنصف التفاتة وكأنه تنبه لوجودي. كانت التفاتة أقرب إلى الاحتقار من الترحيب وصاح بالرقيب:
- هناك من أزعجني ولم يمكنّي من استكمال كتابة التقرير في غاية الأهمية.

تطلع إليّ الرقيب معاتباً، فتحت عينيّ على اتساعهما وحاولت إخباره أنني حافظت على تخشبي منذ دخولي إلى هذه اللحظة، كان ينظر إليّ باجتهاد ولا يعرف ماذا يصنع، وأخرجته من تردده تلك الصيحة العنيفة التي صدرت من سيده.
- هيا قم بعملك.
- .....!!
- خلصني من هذا الإزعاج فأنا غير قادر على العمل.

تحرك الرقيب باتجاهي وأمسك بيدي في محاولة لإخراجي، فازداد تهيجه
- ليس هذا!!
- ليس هناك من أحد سواه يا سيدي.
- بل هناك.

وكز على أسنانه:
- أنت مهمل لا ترى إلا القريب من عينيك. ملعون أكلهما الزمن.

ورنمت الرقيب كثيراً وجمجمة أقرب إلى الرجاء تساءل
- ومن هو ذاك يا سيدي؟

كان لا يزال جالساً خلف مكتبه وصوته يتطاير من بين شفتيه المتحاصمتين
- أنت لم تعد تصلح إلا لعد ما تبقى لك من أيام. لا أعرف كيف بقيت متمسكاً بوظيفتك إلى الآن؟

كان الرقيب زائغ البصر يتلقى تلك الكلمات النارية ولا يعرف ماذا يفعل، أعاد محاولة الاسترضاء
- سيدي، إنني أقوم بما تأمر به على أحسن وجه. من ذا الذي ضايقك وسأعرف به في الحال

صاح به حانقاً:
- ها أنت تضيع وقتي بأسئلتك السمجة.

وأردف متعجلاً حتى أن لعابه تطاير على سطح المكتب
- لا أريد إضاعة الوقت أكثر مما مضى.

وحين لمح أن حارس مكتبه ما زال شارداً حائراً صاح
- اقترب لا طوّل الله لك عمراً.

وأشار بخيط صوب تلك الذبابة الزرقاء التي استقرت على المقلمية، فتحرك الرقيب صوب تلك الإشارة وأخذ يتطلع، وتمتم.
- والله لقد قمت بتنظيف كل بقعة في المكتب أكثر من ثلاث مرات كي لا أغضبك

صاح بانفعال مبالغ فيه:
- أنا لا أتحدث عن نظافة المكتب يا غبي
- !!؟!!
- بل عن هذه الذبابة التي لم تجعلني أكمل مهمتي.
- !!؟!!
- فكيف سمحت لها بالدخول؟ عليك بإخراجها الآن!!

ابتسمت حدقة الرقيب ورعد من دون قصد
- ذبابة.
- أو رأيتها حصاناً يا غبي؟ مجرد ذبابة
- ولكن..
- لا أريد كلاماً زائداً. ألا تعمل هنا حارساً وتتقاضى راتباً ..هيا قم بعملك وأخرجها.

تحرك الرقيب بسرعة صوب الباب، فصاح به
- إلى أين أيها الأبله؟
- سأحضر الفليت.

صاح الضابط بغيظ كمن يهم بتمزيق ملابسه
- ألا تعلم أن المبيدات تسبب لي حساسية وستعطل
نفسي لشهر كامل؟

رد الرقيب من غير شعور
- نعم، نعم تسبب لك حساسية.

وظل شارداً، ليصيح به:

- هيا أخرجها بالهش أو بأي طريقة كانت

وبهمة بدأ الرقيب هش الذبابة التي أخذت تنتقل من مكان لآخر، والرقيب يتبعها أينما اتجهت، وقد خلع (البريه) وأخذ يهش عليها خلفاً في زوايا المكتب فتمنحه قليلاً من الفرح وتعاود التحليق في الأماكن الواسعة والتي يصعب فيها ملاحقتها، أو تتجه مباشرة إلى وجه سيده فلا يقدر على شيء سوى انتظار أن تغادر ذلك النهر الجاري إلى مكان آخر لم يكن قادراً على التركيز فحين يتابع تحليقها يسمع أمراً وبعض الشتائم المتدفقة تخرج من اتجاهه وكلما دنا منها جيره أمر أو شتيمة فتابع هشه بعشوائية، فجأة وجدت نفسي أشاركه متابعة تلك الذبابة الزرقاء وهشها فكانت تتنقل بخفة وسرعة. صاح بنا محفزاً:

- يا أغبياء افتحوا الباب وهشوها باتجاهه

صاح الرقيب

- نعم هذا هو الرأي الصائب.

وجدت أن هذه الشتيمة قد أدخلتني في دائرة اهتمامه فقد سمعت أمي توصيني في إحدى المرات

- إذا سبك الكبير فهذه بداية الخير الكثير

فدعوت الله أن يمكنه من شتيمتي مرة أخرى!!

اقتربت منه ملاطفاً:

- سيدي هل تريدنا أن نمسكها حية أم أنك لا ترى مانعاً من سحقها؟

تطلع عليّ في دهشة وسالت شفتيه كصقر مهمر
– قبحك الله .. يا وغد.

لا أعرف بالتحديد بقية تلك الشتائم فقد نجحت في إظهار الحرص حتى أخرج تلك الدبابة خاصة في أعماقي
– (يا ولد شد حيلك) ربما يكسب بعض رضاه.

فانبريت أوجه الرقيب الذي كاد يتحرك بصعوبة وقد بدأ الإعياء يجري في مفاصله، وثمة أعصاب يهمس بها في داخله يحذر، لأجد نفسي أصيح به
– تعال من هنا.

وأخذنا نهشّ الدبابة وأثناء الهش كانت تراوغ من أجل الوقوف على شفتيه موقف حائلاً بينها وبين مرتعها في محاولة مستميتة لمنعها من إعادة هبوطها لتستقر على وجهه حتى إذا ضيق عليها الرقيب الخناق وأصبحت على مقربة من الباب أسرعت على عجل بفتح الباب الذي وقف خلفه مجموعة كبيرة من المراجعين والذين رأوا الغضب يتطاير من وجه الضابط بينما رأونا نهش تلك الدبابة التي استطاعت التملص من الزاوية التي حشرها بها الرقيب فعادت للتحليق في أرجاء المكتب، وقفوا للحظات متأملين حركات مبدين دهشة لتلك القفزات المتتالية، وحين فاض الغضب صاح الضابط صيحة حسبت أنها شققت سقف حجرته:
– قلت .. أخرجوها.

صحت بالجمهور.

ـ ألا تسمعون؟ ساعدونا في إخراج هذه الدبابة اللعينة !!

انبرى أحد المراجعين لمساعدتي بعد أن قذف بنفسه جانباً، فاكتشفت فضيحة من قبلي حين وجدت أن جميع المراجعين ساهموا مراجعتي في حشر تلك الدبابة الزرقاء ؟!

4

الماء يسير باتجاه واحد

أخبار الذي صعد إلى السماء:

- نزيل عمارة الشرقي يختفي ولا يترك خلفه سوى أساطير غامضة
- المحرر يقف في مكان الحظر ويكتشف الكارثة.

كتب - يوسف الغائب

ليس هناك إلا رائحة رطوبة دهنية تحوم في المكان ببلادة وتسكن الغرفة بدت معتمة بعد أن أسدلت ستائرها، وتموجت بداخلها فوضى مضطربة فلم يبق ثابتاً إلا بعض اللوحة الزيتية العتيقة وذلك الركن للتواصل

كانت (هيئة) قامته توشك أن تنطبق على تلك اللوحة التي سكبت فيه هيبته ووقاره. رنين الهاتف ينزعه من تأمله - بإلحاح - فيتحرك ببطء شديد، ويرفع سماعة الهاتف، وينصت بوجه جامد كجدار

قديم، فجأة تهاوى وظل صامتاً بينما عيناه تذرفان دمعاً غزيراً أخذ يكفكفه بيده، مطلقاً نشيجاً تختلج بصدره حاول جاهداً إخماده، فاعتصره وكلف أمس في ذلك تهاوى حتى أصبح كجذع متفحم تمتم بصوت متداع:

– لم أجد صالحاً لشيء سوى الموت !!

خرجت كلماته باردة واهنة، وكأن الموت بدأ يسري في مفاصله، ولم يرد على جملته تلك شيئاً، فقد أرخى سماعة الهاتف في حين كان ثمة صوت سائلي يئز من الطرف الآخر

عادت الغرفة تسبح في سكونها، فأسلم جسده لأحد الكراسي، وتناول سيجارته، واحتز نفساً عميقاً، وترك عينيه تتابعان زوبعة الدخان المنبثقة من فمه بكثافة.

كل شيء فيه يبدو متآكلاً، عيناه تطفحان بالعبث، وأجفانه المتكسرة تشجرت في عراك محموم. شفتاه قاتمتان سوداوان ترتشف على طرفيهما زبد متيبس. شعره جعد محروق كبقايا ثوب بالٍ أكلته أشعة شمس عمودية، وسحنته باهتة شاحبة غادرها الدم ولم يبق لها سوى زرقة تذكرك بالجثث سيئة التحنيط لا شيء يتحرك فيه سوى نفس بطيء يدخل، ويخرج برتابة الليل الموحش. تحرك كعجوز هرم واستلقى على سريره الرث كجثة يسري فيها العطب بخطى حثيثة. أسند رأسه إلى وسادة، وأشعل سيجارة أخرى وحدق ببصره في لوحة تدلت إلى جانب الجدار. تلك اللوحة التي تمثل سفينة موغلة في الإبحار وعلى متنها استقر ركب واحد له ملامح عابسة ويشير بيده اليمنى باتجاه موجة هادرة تتقافزت إلى مقدمة اللوحة متخذة هيئة وحش أسطوري بينما كان لون السماء

ناكساً منقط بحمرة ملبدة، وفي فضاء اللوحة كان ثمة طائر ضخم فتح جناحيه للأسفل فبدا حائراً بين التحليق والهبوط، وفي أسفل اللوحة اندفع الماء بغزارة.

هذه اللوحة تستأثر به فيمضي معظم الوقت أمامها منتصباً صامتاً خاشعاً لا يبرح مكانه حتى تغور عيناه فيغطي وجهه بكلتا يديه ويركض صوب سريره الرث يجتر الدخان والتأوهات

في خارج هذه الغرفة الرطبة كانت السماء تتهيأ لأن تسكب ماء مدراراً حيث بدت بروق صفراء تلمع في الأفق وتشحذ أسنتها في البعيد حتى إذا تهاوت الرعود من عليائها، استجابت لندائها بخطوات حثيثة مكنتها من الوقوف على رأس المدينة وقرعتها برعد تصدعت له الأرض.

على صوت الرعد الصاخب انزلقت عيناه من على تلك اللوحة وجحظتا بفزع، وتموجت بجسده ارتعاشة قوية، فتدثر بغطائه الشوكي وقضم عروقه بجزع مستجمعاً أنفاسه اللاهثة في محاولة لكبح هذا الفزع الطارئ، بينما كان يحاول ابتلاع ريقه الناشف بصعوبة. ظل على هذا الوضع للحظات، حتى إذا أفرغ الرعد حمولته وبرقت غرفته بوميض خاطف لبرق تشظى على مفرق المدينة، عاد إليه هدوؤه قليلاً فأشعل سيجارة أخرى ومد بصره نافذاً الدخان باتجاه تلك النسمة المبللة ببرودة المطر ورائحته القادمة من نافذته المطلة على الشارع.

كان رنين الهاتف المتواصل لا يزال يقرع أذنيه، ومن بين ارتعاشاته وخوفه نهض بتثاقل متلحفاً بغطائه الشوكي واتجه صوب المنضدة،

وقف بشكل عبثي جعلني لمحارج والريح البردة تلفح وجهه فيزداد انكماشاً. ظهر الشارع مقفراً من المارة. قلة من الرجال تقاطروا فرادى وحرموا عطاءهم بملابسهم الصوفية مادين خطاهم على عجل لتلتهمهم الأزقة المخبأة في جنبات الشارع الممتد.

وظل حسيف يتقطر على زجاج النافذة فمسح بيده صوب سدت القطرات، يحس سيجارته فيها فتنشق الصدر عن ثقوب واسعة سمع مامعها بمرارة. يرفع صدره عالياً وتُجهش بالبكاء.

≈

إلى هنا والأحداث مقطوعة والزمن مفتوح

≈

الشارع بحيرة صغيرة يقطعه مارة بسرعة وعجلة غريبة. كان يسير خلف السمسار يحمل حقيبته وتجهمه تاركاً ضيقاً يطمع من بين تلك الملامح المتشبة ويصيح بالحمال بتأفف.

– إياك أن يسقط أي شيء مما تحمل

كان السمسار يسير أمامه متودداً ومفسحاً له الطريق في دهليز معتم ينتهي بباب بنى عليه العنكبوت حول جدعها أن يشغله عنه، وأدار المفتاح فنادى الباب بصرير مزعج يكشف عن سبب استقرت على جنباته فتحات حمام ومطبخ وصالة صغيرة وانتهى بغرفة انبعثت منها رائحة رطوبة دبقة مقرفة كأن ساكنيها غادروها من أمد طويل تناثرت أعقاب السجائر وملابات الأسرة في أرضيتها

ولوحة لسفينة غارقة لم يتبق على متنها سوى عمود محترق على هيئة شخص يشير للأمام وسماء صافية إلا من طائر غريب سقط أسفل قامة امرأة انتصبت في مقدمة اللوحة وبيدها حجر صدئ.

وكان ثمة مجسم التحف بغطاء شوكي - بجوار النافذة المطلة للشارع الخارجي - نحت بشكل رائع لشخص كأن الموت اقتاته لتوه ظلت عيناه مفتوحة وحدقة بصوبها صوب البعيد ويده مرفوعة وكأنها تحاول دفع كارثة أقبلت مباغتة.

كان المستأجر ينظر إلى محتويات الغرفة بازدراء و جسامة السمسار المرجرجة تشجعه ولسانه يسيل

- تأكد أن قليلاً من الترتيب سيحيلها إلى تحفة تفاخر بها زملاءك.

وضجر رد عليه.

- أأنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!

*

في إحدى الصفحات الداخلية المهملة والتي يحكي فيها المسنون ذكريات سبق من حناجرهم المكلفة بآهات وحسرات غصر قرأت ما رواه أحد أولئك المسنين أن في حيهم عمارة لا تصل إليها الشمس وتظللها سحابة على مدار العام، وكنت أبحث عن تحقيق صحافي أكسب به رضى مدير التحرير الذي طالما نعتني بأنني لا أصلح لشيء سوى حركة الأخبار السهلة التي تبثها الوكالات أو التي تصل عبر الهاتف

عندما قرأت تلك المقابلة والتي يختصر فيها المحرر تلك الحكاية في جملة مقتضبة (انبعاث أسطورة من داخل عمارة مهجورة) حدثتني نفسي أنني قادر على إنجاز سبق صحافي، وبعد اتصالات عديدة تعرفت إلى تلك العمارة وتوجهت مباشرة لإجراء هذا الاستطلاع.

لا أحد يعرف مصير نزيل الدور الأرضي من عمارة الشرقي وإن ظلت هناك كثير من أقاويل وأخبار يتناقلها الناس عن ذلك النزيل بشيء من القداسة، وقلة هم من يسخرون من حكاياته، ومهما يكن الأمر فإن معظم تلك الأقاويل كان يكتنفها غموض كثيف وليس من اليسير كشف الحجب التي تسربل بها.

يقولون

– صعد إلى السماء!!

هذا هو التفسير الجاهز لحادثة لم تستوعبها الذاكرة الشعبية لأبناء تلك الحارة المفروسة في مؤخرة المدينة والتي تحتفظ بمئات الأساطير والطلاسم، وتعدو الأساطير ذات إغراء لا يقاوم خصوصاً أنها تحمل المرء من عالم ساخر وتمضي إلى عالم اللامعقول، عالم خصب، عالم تتحقق فيه كل المستحيلات. فالحياة أسطورة مقلوبة ومن نظر إليها بهذه الصورة تكشف كل الأسرار المغلقة وأغلب الظن أن هذه الحادثة كانت بمثابة المخدر الذي يتسلل في الأوردة ويترك ضحاياه مقذوفين بين الحلم والنشوة.

لم أكن لأصدق تلك الحكايات التي انثالت على مسامعي أثناء إجراء هذا الاستطلاع وإنما كانت تدوخني أفكار شتى

– لماذا تلغي الذاكرة الشعبية المنطق وتتحد بالأسطورة؟!

ولماذا يتم فصل الواقع عن ظروفه في البدايات المتخيلة؟!

وتبادرت إلى ذهني الروايات التاريخية وما تضفيه على أبطالها من قوى أسطورية يناقضها ما يدعمها من منطق معرفي، وظل سؤال يحيرني

– ما مدى استخلاص الحقائق من كل هذا الكم الهائل من الحكايات؟!

هذا الاستطلاع يهدف في الأساس إلى الاقتراب من تلك الأسطورة التي نمت وتناقلتها الألسن بصور مختلفة ومتباينة

ولكي لا أغامر في تحقيق فاسد فكرت في أن أقطن تلك الشقة، ولأنني أخاف كثيراً فقد قمت باستئجار شخص يقطن تلك الشقة ويحدثني عن تجربته لكن ذلك الشخص غاب ولم أره بتاتاً ربما كان أحد ضحايا تلك الأسطورة التي يؤكدها أهل الحارة، وفحواها (لا يدخل أحد تلك الشقة ويعود)

في البدء قابل مدير التحرير حماستي بسخرية - وبتشجيع من أستاذي محمد عائش بسرد هذا على القرى - حين مددت إليه ورقة أطلب فيها مصوراً، فتح فمه لتظهر أسنانه المتصدعة ذات البريق التي طالما منعني خجلي من التحديق بها، وهش بطريقة مسرحية.

– ولم تحركت؟! ماذا تود أن تقدم؟
– موضوعاً لن أبوح به.
– كل ما أخشاه تضييق فكرتي عنك
– ستري موضوعاً يستحق أن يظهر إمكاناتي الصحافية

- ألغي ذلك.

والحقيقة كان رؤوفاً بي وبحربي كثيراً، ولا يتبادر لأحد من القراء أن هذا مديح فأستاذي لا يكره شيئاً ككرهه للمديح

خرجت والحماسة تشتعل في أطرافي، كان علي أن أبحث عمّن يرشدني إلى مدخل تلك العمارة التي التفّت حول نفسها كامرأة أصابها العري فلم تجد سوى ذراعيها لتستتر بهما من العيون الشبقة المحدقة بها. كان دوراننا - أنا والمصور - حول تلك العمارة مثار الريبة من قبل أهل الحي، ولم أجد بداً من معالجة المصور بإخراج كاميرته من حقيبته، وكما توقعت استطاعت الكاميرا أن تجذب الكثير صوبنا وجعلت الجميع يحومون من حولنا بفضول متوحش، وكنت كلما التفت نحوهم وجدت أعدادهم تتزايد، وإشاراتهم التي يطلقونها تجبر كبار السن على التحديق في وجهينا وقد استحالت في أنظارهم إلى أنس غريبي الأطوار، وكلما هممت بمحادثة أحدهم تراجعوا وتفرقوا هاربين لتبتلعهم تلك الأزقة الملتوية

درنا - أنا والمصور - حول العمارة مراراً، وفي كل مرة نعجز عن تحديد المدخل، كان منظرنا لافتاً لأهل الحي الذين كثفوا بالتحديق، وإن كنت أحس بهمساتهم ونظراتهم المريبة تخترق جمجمتي من خلفي.

في المرة الأخيرة دفعوا شاباً نحونا يظهر من هيئته أنه المتعلم الذي يقدمونه في مثل هذه الحالات. اقترب منا بحذر وبادرنا بسؤال مرتبك:

- هل باستطاعتي أن أقدم لكما يد العون؟!

فوجدتها فرصة سانحة لأن أتودد إليه
- مرحباً. هل أنت من أبناء هذا الحي؟!

التفت إلى من كان يراقبه، وهز رأسه بالإيجاب، فاقتربت منه وأطلقت ابتسامتي.
- نحن صحفيان.

لمعت عيناه، وبدون شعور امتدت يده إلى عنقه لإصلاحها، وازداد ارتباكه فقال متلعثماً
- تكتبون بالجرائد!!

هززت له رأسي مردفاً:
- ونحن بحاجة إلى العون في استكمال استطلاع
- حارتنا ينقصها الشيء الكثير وهي في حاجة إلى مثل هذا الاستطلاع. هل تودان أن تصورا البيارات الطافحة أم أسلاك الكهرباء العارية، أم أكوام القمامة أم.. ؟

وقبل أن يكمل سرد شكواه، تداخلت معه
- لا، لا. استطلاعنا ينحصر في موضوع آخر
- أي موضوع؟
- نزيل الدور الأرضي من عمارة الشرقي.

ارتبك قليلاً وأمعن النظر للخلف ثم أردف
- سأساعدكما بشرط أن أرى صورتي بالجريدة

فأوعزت للمصور بأن يأخذ له صورة، وعندما رأى وميض الفلاش

صاح بي ترقبونه:

- إنهما صحفيان وليس كما ظننتما.

فانطلق صوبنا مجموعة من الرجال والصبيان ينمّ وقعهم علينا رجل مسن يحدق فينا باحتقار ويحدث بامتعاض لمن التف حوله:

- لم يوجد الله أكذب من هؤلاء الصحفيين يكتبون الباطل حقاً!!

فلم يلتفت إليه أحد حيث كان المجتمعون يتربصون من أي اتجاه ينطلق ويهمس الفلاش فيتبعونه كالقطط تركض خلف خيط متحرك وما أن بدأنا بسرد أسئلتنا حتى انفتحت شهية كل منهم للحديث، وكان أول المتحدثين بواب العمارة (رجل يميل إلى البدانة قصير دقيق الملامح).

قبل حديثه مضحكاً بعض الشيء، تنحنح ومسح رأسه شدقه بالإبهام والسبابة:

- يقولون إنه يملك خاتم سليمان!!

بهذه الجملة الفنتازية بدأ حارس العمارة حديثه، فشجعته على المضي في سرد ما سمع فقال:

- لقد مضى علي زمن طويل وأنا أحرس هذه العمارة، وقد سمعت العجب عن ساكن الدور الأول، وقد تناقل حراس العمارة حكايات كثيرة عن هذا النزيل إلا أن أحداً لم يجزم بما سمع وإن جاءت معظم الروايات نقلاً عن الحارس الذي عاصره إذ روى

- لم أر في حياتي رجلاً أغرب منه، فلم يكن يغادر منزله إلا لماماً، وغالباً ما يقف خلف النافذة محتمياً بستائرها الشفافة فيبدو من الخارج كشماعة الملابس. ولم أكن لأتجرأ على طرق شقته، فبعد أن فعلت ذلك في إحدى المرات أقسمت أن لا أعيد الكرة مهما حدث. كنت مكلفاً من قبل صاحب العمارة بجمع الإيجار الشهري من سكان العمارة وكان الجميع يبادر بدفع الإيجار قبل أن أطرق عليهم الباب إلا نزيل الدور الأول، فقد كنت ألقاه في أوقات النوم يقف على رأسي ملوّحاً برزمة من الأوراق النقدية بحوزته سداد الإيجار ولا يلتفت لملاحظتي عن تلك الزيارة، وفي أحيان أسمعه كالهمس يقول
- ما تبقى حلال لك.

كنت دائماً أقف في منطقة متأرجحة من الوعي فلا أعرف هل أنا في حلم أم في واقع؟ وفي أواخر أحد الأشهر سابقاً عن السداد فبادرته بطرق بابه، فظللت أطرق الباب لوقت طويل، وعندما هممت بالعودة سمعت صوتاً ثقيلاً يأمرني بالدخول فدفعت الباب ودخلت، كنت أسمع الصوت من غير أن أرى محدثي، وفجأة رأيت أوراقاً مالية تتحرك في الهواء فوقفت متخشباً ولم أعد إلا ويد تحشر بجانب جيبي وتضع النقود وبنفس نبرة ذلك الصوت الثقيل سمعت.

- إياك أن تسألني عن شيء قبل الأوان!!

وأحسست بيد تدفعني للخارج ومنذ ذلك العهد وهذه الشقة كما هي عليه.

صمت الحارس صمتاً ثقيلاً، ثم وكمن يخرج نفسه من عالم مليء بالأطلال، تابع

- . . . الآن لا أحد يسكنها وكلما نزل بها أحد غادرها قبل أن يكمل يومه الثالث.

يقولون إن هذه الشقة مسكونة وإن الذي يسكنها مسك الجان بعينه!!

وفي مكان آخر من الحي حدثنا يوسف مبارك - نجار يقطن دوره هذا الحي من عهد الأشراف وقد سحب وجهه سحنة كهولة قديمة حافظت على قسماتها رغم ركض السنوات الطوال - قال

- في الحقيقة نزيل هذا الدور رجل مبارك وقد سمعت أبي يروي عن جده أنه سمع أناساً يقولون
- لقد صعد إلى السماء!!

حيث يروى أن ذلك النزيل بينما كان يحاول إغلاق نوافذ بيته خوفاً من تدفق الصواعق التي ضربت المدينة شوهد يخرج في دفق نحو الماطر لملء ردائه بحبات البرد فعرقصت السماء بصاعقة ملتوية انصفقت عن طائر غريب له لون الشهب لخاطفه حط عليه وأنشب مخالبه بملابسه، وحلق بجناحيه عالياً حتى غاب بين السحب

وتحدث إبراهيم النجار - مقطن أسرته بهذا الحي منذ عام ١٣٧١ للهجرة - قال. سمعت جدي لأبي في طفولتي يقول.

- لقد خسفت به الأرض!!

ويروى أنه ظل طوال حياته عازفاً عن النساء وظن كثيرون أنه عاجز

لا يقدر على إشباع شبق نساء هذا الرمس، وظل هذا الاعتقاد سائداً بين رجال الحي حتى أن أحدهم بدا رأى زوجته تجالسه وتكبسط معه ثم تبدّله مياه العبرة. وكان مولعاً بتربية الإناث من حمير فكانت له زريبة تجاور حوش المدني من جهة الغرب اتخذها إسطبلاً يربي بها تلك الإناث، وفي ذات يوم أقسم أحد الرجال الثقات أنه رآه يأتي إناث الحمير بشبق فلم يصدقه أحد مجتمعهم وسار بهم إلى الحوش، وظلوا يتربصون به حتى أتى إحداها كما يأتي الرجل أنثاه فرفع أحدهم يده داعياً عليه، وما هي إلا لحظات حتى غارت الأرض وأخرجت روابعها وكانوا يلمحونه وهو يدور بوسط تلك الزوابع حتى غارت به الأرض. ولاتزال هجوة كبيرة تتوسط ذلك الحوش الذي خسف به.

وقد وقفنا على تلك الهجوة والتقطنا صوراً لها ويطلق عليها (بير العذاب)، وقد رجعت لكتب التاريخ ووثائق البلدية فلم أعثر بها على ذكر. وربما ما ذكره يرتفع إلى نار دخل إلى ذاكرته من خلال التاريخ الشفوي الذي تحتفل به المجتمعات الهامشية بحيث تصنع بها تاريخاً موازياً للتاريخ الرسمي، ومشكلة هذا التاريخ أنه ينتهي بعد زمن قصير لأسباب عديدة قد يكون أهمها وفاة أصحاب ذلك التاريخ أو رواته، فهو تاريخ مدون في الصدور وإن ظل باقياً فيتم تناقله برواية عديدة تتعدد بتعدد رواته وتنتقل من كونها تاريخاً إلى كونها حكايات سرد لتزجية الوقت، ويتم ذلك في ظل غياب توثيق التاريخ الشفهي.

وروى منصور الفرحي عن أبيه
ـ لقد حلق في السماء كطائر ري.

وقال رجل رفض ذكر اسمه:

ـ لقد اختطفته الجن.

بينما روى أحد كبار السن أن الرجل أحرق بالكهرباء لأنه حاول أن يطال من أحد الشخصيات المهمة

وقال أحد أولئك الصحفيين للبيع ويدعى صالح المزروع ـ كان يعمل بالعسس، وبعد تقاعده لم يجد مكاناً يجلس فيه فواصل السير في الأزقة والمنحنيات ـ

في ليلة من الليالي المدلهمة، رأيت رجالاً يحملون برميلاً ويصعدون للمنارة وبعد صعودهم بقليل سمعت صرخة أشرب لها الظلمة وجهها ـ وحجبت عن نفسي استغاثته. وبعد أن رأيت الجناة يغادرون المكان صعدت لأجد برميل الدور الأول قد ألبس درعا نحاسياً ساخناً، وجمد به كل شيء وقبل أن أستبين ما حدث، كان أحد أولئك الجناة قد عاد وعندما لمحني أخذ يجرجر تلك الجثة المصبوبة، ثم تراجع بل أقبل علي محذراً:
ـ هذا رجل نال جزاءه وإياك أن تفتح فمك كي لا تجاوره

لقد مضت سنوات على تلك الحادثة، وأسردها الآن لأنه لم يعد بالعمر بقية، فليأت أولئك الجناة لنزع روحي التي أحب الخروج بالرغم من هذه الحياة الضنكى، والتي لم تعد قادرة على مدّي بقليل من هوائها، فها أنا أجاهد من أجل الحصول على قليل من الهواء يجري في هذا الرصيف المتهالك.

إزاء هذا القول أردت أن أستوثق من الشرطة بالبحث في سجلاتهم

عن حادث من هذا النوع تم تدوينه في الفترة التي حددها الراوي، لكن محدوثتي تعثرت، وتلقيت توبيخاً من أحد الضباط، كاد يصل إلى إدخالي غرفة التوقيف ـ أحسن اسم الضابط ومركز الذي يصل به من أرد إنصافي، فأنا أولاً ولخير صحافي تؤدي دور توعوياً في المجتمع كما يؤدي هو دوره الأمني بالضبط.

مع تلك الروايات المتداخلة، والمتناقضة طرأت على البال فكرة ألحت على كل تفكيري كانت تتعزز كلما تذكرت أن علي أن لا أتأخر في تقديم تحقيق فاسد. كانت الفكرة أن أقبض تلك الشقة، وخشيته أن يعرضني لنيل الجدة ـ بعد رؤيتي بالأمس ـ فقد تنكرت في هيئة شيخ طاعن في السن وحملت معي بعض الحاجات البسيطة وانتقلت إلى الداخل تلك الشقة مبدياً عدم الرضى عنها على مسامع السمسار الذي كان يطلق ابتسامته، ولسانه يسيل تحفيزاً:

ـ تأكد أن قليلاً من الترتيب سيحيلها إلى تحفة تفاخر بها زملاءك.

كنت أنظر إلى محتويات الشقة بازدراء، ورددت عليه متجهماً:

ـ أأنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!

رد مؤكداً:

ـ ستجد كل الراحة بداخلها، فهي تطل على الشارع وتعتبر إيجارها زهيداً وله مميزات ستكتشفها عندما تسكنها.

كنت راغباً في الوقوف على كل التفاصيل علني أجد شيئاً يهديني

في تقديم هذا التحقيق. قبضت العرض، وخرج السمسار فرحاً ـ كنت متيقناً أنه كان يستغفلني في داخله، وربما خامره شعور الظفر لأنه استطاع تأجير هذه الشقة المهملة من سنين طويلة ـ

مكثت بها باقي.

الليلة الأولى:
أحببت أتفقد تلك الشقة:

دهليز معتم ينتهي بباب ذي لون باهت يعيش على زواياه أنسجة عناكب وأرضية نخرت بلاطه

وجدت نفسي محاصراً برائحة دبقة، وذلك التمثال يقترب من الحركة إلا أنه صب بنحاسي داكن، شيء ما يحرضك أن تتأكد أنه تمثال وليس كائناً تصلبت مفاصله وبقي على هذه الهيئة وكان هناك ورقة صغيرة مثبتة على الحائط كتب عليها مواعيد بريدة الدكتور وعلى أطرافها كلمات متناثرة (ما هو الحب؟ الالتزام ـ البحث عن الخلاص ـ مسدس صباح ـ الموعد المحدد ١ ـ ١ ـ ١٤٠٠ ـ وصيه ـ) كلمات ليس بينها رابط وقد سقط بعضها من على الورقة وتمدد فوق الحائط ذي اللون الباهت.

هب افترضت أن يكون قبري، لا أحد يصدق حجم الكارثة التي عشتها، ولن يجرؤ أحد على الحديث عنها، أفراد تقاسماني حبيبتي ووطني، وكل منهما أسلمني لهذا المصير هل أنا محتاج للتوضيح؟ أنا سأموت الآن بعد أن حررت هذه الليلة، سوف أصبح

على جسدي رصاصاً ذاتياً وسأظل كتمثال يكشف عورة الواقع ربما يأتي أحد في الزمن القادم لينبش سيرتي ويعرف المأساة عن كثير من العته. هذا لا أقول الكارثة التي عشتها مادمت ميتاً مهاناً؟ وهذه مشكلة أخرى، فأنا أخشى على أناس مازالوا أحياء، أخشى عليهم من البطش. هل يكفي هذه الجملة؟

الليلة الثانية:

وقفت أمام تلك اللوحة، ومددت يدي. كان اللون الأحمر يتزّ، وكم كانت مفاجأتي صخمة! لقد كان دماً راعفاً، أصابتني الرعشة والذهول، وشعرت بقشعريرة تسري إلى الأسفل، وأنا أتلمس طراوة ذلك الدم. وقبل أن أفيق كان صوت ثقيل يتردد في جنبات الغرفة

– ما الذي جاء بك؟

لم ينتظرني صاحب الصوت كي أجيب بل أحسست بيد تلامس كتفي وتهزني:

– سوف أتركك لتكتب ما شاهدت بيدك والدليل.

أحسست بيد تجذب جسدي تجاه ذلك الصنم ذي الرداء الشوكي وكلمات تردد بحنق.

– لقد قتلوني، سوف تجد الدليل هنا

سمعت خطوات سريعة تغادر المكان وانطفأت الأنوار، وسمعت خرير ماء يتدفق بغزارة حتى خيل لي أن طوفاناً سيغرق المدينة. أحسست بالمياه تحاصرني من كل جانب، وكلما حاولت رفع صوتي باستغاثة محمومة تحجر صوتي داخل حنجرتي فأجدني

بيدي بكل قوتي، ومن بعيد أرى المياه تغمر المدينة وتجرفها نحو البحر من غير أن يرتفع أي صوت باستغاثة، كل شيء يتحرك صوب البحر بصمت واستسلام وعند الصوت ثقيلاً متوعداً

– ابلع عني سوف أتي هكذا

والتفّت يد حول عنقي لتجذبني من وسط تلك الأمواج العاتية، وهبت هلعاً حولي لأستيقظ في الصباح واعتقدّ أنني كنت أحلم، وقبل أن يستقر هذا اليقين كانت ملابسي المبللة تعكّر ذلك الاطمئنان، وبقع من المياه تجمعت في زوايا الشقة، فأيقنت أن سحبتُ من مخالب المياه قد جاءني في غفلة مني. وقبل أن أتمكن من طمأنة نفسي يتدوران على تلك المخالب كان الصوت الثقيل يجوب أرجاء المكان:

– أتوهم توقف بتقدمي؟ أخبر عني أخبر أولئك العاقين

أنني سوف آتي كما رأيت..

خرجت راكضاً بينما كانت الحارة غارقة في نومها وأنوار الأرصفة تجاهد بسالة في دفع ليل هطل بكثافة.

ملاحظات على التحقيق

الزميل يوسف الغالب

تحية وبعد

هذا التحقيق لا يصلح للنشر للأسباب التالية

١ هل نظر مسلسل مكتب سيندريو أفلام الكرتون الخاصة

بالأطفال حتى تتصور أن القراء سوف يصفقون على قراءة تحقيق (لا أعرف أي وصف أطلقه عليه لكنه كما قلت أنت تحقيق فاسد)؟

٢ هناك فجوات في التحقيق وإسهاب في المقدمة التي لا تفهم الغاية ولم أقرأ في حياتي - وأنت تعرف عمق تجربتي - تحقيقاً صحافياً يبدأ بهذه الكيفية. والعارف لأدنى مبادئ الصحافة لا يبدأ تحقيقاً صحافياً بالكيفية التي بدأت بها، أو يكتب كلاماً كالذي كتبته

٣ اللغة المستخدمة ليست لها علاقة بلغة الصحافة أو الأدب أو أي حقل من حقول المعرفة.

٤ ماذا يعني القراء من شخص غاب عن بيته في زمن من الأزمان؟ لتأتي حضرتك وتضفي عليه من القدسية والصفات المبالغ بها حتماً يصل لأن يمكننا من وصم كاتبها بالجنون أو العته

٥ هناك تفاوت مهول في التواريخ بين حضور الرجل ومن يتحدثون عنه.

٦ فبدلاً التي لم تتورع عن ذكرها وكأنك تكتب في بالفودفيل وليس في صحيفة محلية كان يجب عليك مراعاة القيم والمثل التي ينطلق منها مجتمعنا، مجتمعنا المثالي لن نمكر معتقداته مثل هذه الكتابات السخيفة والمقيتة والمشوهة

٧ وسعيك لإشاعة خرافات وهرطقات تتنافى مع قيمنا وعاداتنا

وتتنافى أيضاً مع توجهات البلد وروح المواطنة الصادقة لديك. فأنا أحذرك من محبة الانسياق خلف هذه الترهات، والاستخفاف المهين بعقلية الناس دون الاستخفاف الذي بدا جلياً من خلال ما نطلق عليه عملاً صحافياً خارقاً

٨ تمتلك العاصمة والذي حاولت فيه استجلاب عاطفتي معك مع معرفتك الأكيدة أن مثل هذه الجمل التي ذكرتها لن تنشر وإنما حاولت أن تمررها عني وكأنك تسخر في داخلك مني، وهذا الشعور يدل على خبثك وحداً محمدك وأن بك نفساً رخيصة مبتذلة لا ترى أبعد من ذاتها التي تحاول دائماً تضخيمها مقابل إنقاص قدر الناس

٩ من تظن نفسك؟ أنت مجرد محرر صحافي لا تزل في أولى درجات سلم الصحافة، وأظنك لن تصعد على أول عتباته لأنك لا تمتلك أي موهبة. أقول هذا القول لأنك كتبت في بداية التحقيق (كتب يوسف الغالب). هذه البداية لا يكتبها إلا رئيس التحرير أو نوابه أو كاتب جهبذ له عمر طويل في دروب الصحافة، أما أنت فتظل مصدراً مكرراً منفصلاً عليك يمكن كتابة اسمك على الأخبار السقيمة التي تأتي بها من خلال الهاتف أو حركة أخبار الوكالات.

١٠ أنت لا تصلح لأن تكون صحافياً أو أي شيء آخر وصيتي لك أن تقدم استقالتك.

١١ صحيفتك متميزة منذ أن انطلقت في ميادين الإعلام بالابتعاد عن كل الانحرافات التي يشيعها مرضى النفوس والعقول،

ولن نجرها بمثل هذا التحقيق الصحفي إلى مزالق درجة ومشبوهة.

هذا للعلم..

ملاحظة أخيرة:

إياك ثم إياك أن تلجأ لمحاولة تمرير هذه (التخريفة) عبر رئيس التحرير، ولا احتاج لأن أذكرك أنك بمثل هذا التصرف تتعدى على صلاحيات رؤسائك.

مدير التحرير

محمد العائش

١٤٠١ - ٥ - ٢

ترويه:

لا أزال أحتفظ بهذا التحقيق من غير أن أتمكن من نشره منذ عشرين عاماً.

يوسف

٥

الأوغاد يضحكون

يتسلل ضوء القمر عبر منفذ صغير استقر في أعلى العنبر، وحين تحدق بالظلام لا ترى إلا أجساداً مقذوفة في أحلامها البائسة بعمق وملل.

الليل منفذ واسع للهروب من تلك الآهات التي تثقب الصدور، كان الحيشة - وهو أقدم سجين - يردد
- إذا كثرت أحزانك، نم.

فأصبحت مقولته قاعدة يستتر بها من رحاب أحزانه الكثيفة، فما أن يهبط الليل حتى يتسابق إلى مخادعهم ليجتر ذكرى قديمة أو حلماً يمر من البال بالقصاب.

منذ ليال مضت لم نعد نسعد بالنوم، فما أن يطبق هيوننا حتى

يتعالى صوت دمدمة وقرع طبول وروائح لقش محترق، وفي أحيان كثيرة رائحة شياط بذبيحة تشوى على جلبة أصوات دمدم بهمة وأقدام تضرب الأرض بتوتر، ولم يكن أحد ليجرؤ على فتح عينيه بعد أن فقئت عين البوري بحربة انطلقت من الظلام لتفجر محاجره وتترك له حفرة غائرة وجناً مطعطعة، فهما بعد أقسم أن ثمة جن يسكنون هذا العنبر، وروى أنه رأى جماعة من الزنوج تدور حول نار ملتهبة رافعة حرابها ومحرابها دكّ الأرض بغضب نافر من سحنتهم المتشابهة وحين رأوا عينه المحدقة بهم أطلق أحدهم حربته باتجاهه.. ويعد أن أبقى في ذهاب ضوء عينه أصبح لا ينام، ـ يقول بعض من تتبع أخباره أنه أدخل مستشفى المجانين، وأنه يجالس أقرانه يومياً ويحكي لهم سبب انطفاء ضوء عينه اليسرى ـ فما أن يأتي الليل حتى يصاب بهياج وسعار ويظل يقفز من مكان إلى آخر صائحاً:

ـ الجن ينتظرون نومي حتى يزهقوا روحي

وشاع خبره في بقية العنابر وأصبح المساجين يطلقون على عنبرنا (عنبر الجن) وحين وصل الخبر إلى مأمور السجن سخر من عقولنا السقيمة ـ على حد زعمه ـ وعزل البوري من عنبرنا بعد أن أشبعه ركلاً في محاولة لمعرفة من قلع عينه، وكلما ركله أكد له تحدث الواقعة التي رواها لزملائه ـ حتى ملوا من كثرة ترديدها ـ فيزداد المأمور سخطاً وتنكيلاً به، ولم يتوقف عن إيذائه إلا حين تملكت ذهنه فكرة أن ثمة أصواتاً تخرج ليلياً من ذلك العنبر ولا يعرف مصدرها بالتحديد، عندها أصدر أمراً لبعض حرسه بالتلصص بين المساجين خفية والقبض على العابثين الذين يقومون بإصدار تلك الجلبة ليلاً، لكن المراقبة لم تثمر شيئاً وظلت الأصوات تواصل جوقتها الليلية

في تلك الأيام أصبح الجن وحشاً ضارياً لا نستطيع دفع خوفنا منه

إلا بإحساس مهزوم والإنهاك لتلك الأصوات حتى مطلع الفجر وما أن نخمد حتى نسرق قليلاً من النوم قبل أن توقظنا أحذية العسكر

في إحدى تلك الليالي الماجنة وفتحت عيني، كان العنبر غارقاً في الظلمة، فأخذت أنقل بصري هنا وهناك من غير أن أعثر على شيء، وقبل أن أطبقهما لمحت عود ثقاب يشتعل في ركن قصي من العنبر، أعقب روحه تتصدد في كومة قش فبعث الدخان ونار متكاسلة هبت منه مع قرع طبل هيج صهداً قاتلة في ذلك أرجعه العنبر ورأيت شربوكه يقف منتصباً رافعاً يده بحربة ذات نصل دقيق ويدور صارباً الأرض بقدميه جوبر وانفعال راقصين، بينما كان صوت الطبل يتعالى على صيحاته متهيجة فتستجيب بها صيحات حادة متوحشة أقرب لعواء تأتي من أماكن قصية أشد مهيبة مدت الصيحة، تجر بغالها ومواشيها والتفوا حول النار المستعرة يضربون صدورهم بأياد خشنة في دم بر من عجيل نحر للتو وغرزوه بحربة جرت في فمه ولم تطق أن تغيب في أحشائه طويلاً فظهرت من دبره! وحملوه ليستعر على ودس مصيا بشكل متوار بينما كان رجلان يمسكان بطرفي الخازوق ويقلبان العجل تمهل على نار أضرمت من وقت مبكر.

تحت شربوكه يرقص في دائرة يحف به رجال سود كالليل، يحتزمون بشعر ويتسلحون بأدوات بدائية وأيديهم تمسك بحراب مدببة يرفعونها بين لحظة وأخرى على رؤوسهم وإذا أنزلوها حالوا بها صدورهم كمن يستعد للقذف مطلقين صيحات الظفر. بينما كان شربوكه يتراقص فتهتز كل مفاصل جسده وفق قرعات طبل تكفي بقرعه أصحهم، فكان لمكلف بضرب الطبل يصدر ضربات ثقيلة حيناً وسريعة في أحيان أخرى فيستجيب لها جسد شربوكه

بطئاً وتدفقاً ويهدر كموجة تنثني على نفسها وينطلق نحو النار حاملاً من جمراتها وناثراً إياها فوق رؤوس المحيطين به فينكبون أسفل قامته سجداً يقفز عالياً ضارباً الهواء بساق حربته ويصيح محتد

– من سيهين جسنو لا بد من جز عنق[*]

في إحدى غزواته بلاكف أعيف فأشار بي باحتصاص عنيي، وعندما لم أستجب لإشارته رأيت زنجياً – حجري الملامح – من خلف ظهره يستعد لقذف حربته باتجاهي فاعتراني الخوف وأغمضت عيني على عجل وتلحفت بغطائي ولذت أستعيذ بالله وأجاهد نفسي لتتعب عني خوفها، وكلما حاولت الانغماس في النوم تعالت صيحات أقرب للعواء وهمهمة ثقيلة رهيبة هاجت على إثرها رائحة شياط تعجل بر سمته عني دار مستمرة . ومن بعيد بعيد جداً تأتي أصوات متداخلة تمضغ الكلمات بلكنة غريبة وإن كانت منضمة يشق انسيابها صوت شربوكه حاداً مرعجراً

– من سيهين جسنو لا بد من جز عنق

يختلط صوته حيناً بأصوات متهيجة وثغاء أغنام وخوار ثور وربما شعير إنسان مرقت على نحره شفرة حادة بعدها هدأت الجلبة وعاد السكون ليغمر شيئاً فشيئاً وغرقت في العتمة والصمت

في الصباح اقترب مني شربوكه وهمس

– إياك أن يعلم أحد بي رأيت ليلة البارحة وحين هممت بملاحقته بالأسئلة كزّ على أسنانه

(*) أنا خارج الزمن أيها الأوغاد

- يكفي ما رأيت... وتذكر أن ثرثرتك تقابلها حياتك

وعندما لم أعد أشفق عليه أصبح أكثر وداً معي.

*

السجن يضيق حتى يصبح صدرٌ إضافياً يختنق بداخله القلب بتوتر، وتغدو الحياة أنفاساً رتيبة مملة تقطعها بكلمات مجة مسير سير ملخلخلة هرمة. كان مقرراً علينا أن نقضي زمناً طويلاً داخل هذا العنبر، فقد حددت جرائمنا، وصنفت ضمن الجرائم الخطرة والتي توجب السجن لسنوات طوال، هنا يصبح الزمن وجوه أناس نتأملها ونقرأ تفاصيل ماضٍ موغل في البؤس وغد مصمصم لا يبين. تسير صوب تلك الوجوه من غير أدنى اكتراث ويصبح الفقد وجوه أولئك الذين يدخلون أو يخرجون من هذا العنبر، ويكون زمناً خصباً حين يهلّ علينا نزلاء جدد نتعرف من خلالهم إلى ما يحدث خارج هذه الزنازين التي مللت من نتنها وروائحها، ليس هذا فحسب فمع مقدمهم نحصل على الدخان وبعض الحاجيات البسيطة التي تعتبر داخل السجن كنوزاً تمير بعضنا بعضاً كقنينة أو قطعة صابون أو منشفة أو سروال، أو (كشيدة). ولمقدم هؤلاء النزلاء - الجدد - فرحة تسري بيننا وتفيض من تلك الوجوه القاتمة حيث كنا نسعد بحلهم باحتلال الأماكن التي تم إخلاؤها من تلك الأجساد الدبقة التي غادرتها بالإفراج أو القصاص، ونقوم ببيع الأماكن الشاغرة للقادمين، وبالتالي يتيسر لنا بعض المال نستطيع من خلاله أن ندبر بعض الأمور التي نحتاج إليها. فبالرغم من اشتغال معظمنا بأعمال مختلفة في داخل السجن، إلا أننا نضيع ما نحصل عليه وراء إشباع نزوات

حمقاء سرعان ما تتلاشى في عتمة الليل خلف ظهر منتهي الانبطاح وتحمل أبادب المتعة على كتفه بشبق.

شيء قدر أن نحصي ولفتت سطارح فانتشا بعض النزلاء الذين أدمنوا العودة وجعلوا تجارة رابحة تدر عليهم المال اليسير الذي بين أيدينا، وقد بدأت هذه التجربة بجذب صورة بيضة عنيدة، كان يجاورها بلبة واحدة خصصه ريالات والساعة بريال وحد، ولكون الأمور تمتلق مبكراً فقد كان البائع يستعين بجلب شموع يتم تهريبها ولصقها بأعلى حمالة - بعد إذابتها - ولكي ستأجر الصورة عليك أن تستأجر معها قطعة شمع وتتدبر كيف تشعلها بعد أن يطفئ الحرس أنوار العنبر، وبعد دخول صورة بيلة أصبح الداخلون أكثر تفنناً في جذب الصور الأكثر إثارة وإشباعاً للنهم الذي نعيشه.

أصبح العنبر شبقاً لدرجة أننا أوكلنا أحدنا بمقابلة المأمور برجوه أن يزيد نسبة الكافور في ما نأكله ونشربه، إلا أن شبق تجاوز الحدود ولم تفلح معه زيادة الكافور وقد انتهى بعض الانبطاح ليحصد المال بهذه المهنة القذرة.

لم يكن مقدراً لمجموعة كبيرة أن تغادر هذا العنبر في وقت مبكر، بدئت كان هاجسنا كيف يمكن لنا أن نمضي أيامنا من عبر أن نتطلع إلى الغد، وإن هدنا همنا أن نصنع كثيراً من الأحلام الصغيرة والكبيرة في انتظار أن يأتي ذلك اليوم البعيد.

كان يجاورني أحد الأفارقة - ويدعى شرموكه - والذي كان مشغولاً بالتخطيط على أرضية العنبر ورسم أشكال بديعة، ولم

أكتشف مقدرته الفذة في الرسم إلا في إحدى الأمسيات حين مد يده بورقة باتجاهي مدهشة لتلك الرسمة التي جسد فيها هيئتي ولصدته الطويل كنت أظن منه أصم أو أنه لا يفقه العربية بكنني اكتشفت أنه يتمتع بلسان عربي وروح حلوة متعطشة للحياة. ولقد عرفت فيما بعد أنه اقتيد إلى السجن بتهمة مزاولة السحر

وحين علم زملاء العنبر بتهمته أخذوا يتضاحكون ويلمزونه

- لو كان ساحراً لما استطاع أحد أن يقتاده إلى هذا المكان المعتم..

كان يسمع أحاديثهم ومكائدهم بشيء من الثقة تاركاً ابتسامته تسيل على شفتيه الغليظتين وعينيه الصخريتين تتمعنان في تلك الوجوه المكدودة.

في إحدى الليالي سامرنا قال إنه قدم من خلف جبال تكوتا حيث السحر والجمال من قرية ما زالت تقبع خلف التاريخ، وفيها أناس لا يعرفون سوى الغابات وأغاني الأمطار ويقدسون الروح المحلقة في الفضاء.

ذات مساء وبينما دخلنا في نومنا سمعت همهمة وبكاء مكتوماً - كان هذا قبل فقدان النوري نعمته البصرية - تقلبت فرأيت شربوكه يجلس القرفصاء ضاماً يده إلى صدره، اقتربت منه

- ما الذي يبكيك؟

وكمن أمسك به وهو يسرق انتفض وسارع إلى مسح دمع عينيه، وشيء من الغلظة تمتم

ـ هذا شأن لا يعنيك.

فما رحت أتودد إليه حتى انبث شوقه دفقاً عبر كلمات مختنقة حميمة
ـ اشتقت لقريتي ولتلك الوجوه السمراء المزروعة في الأرض.

وضعت يدي على ظهره مهدهداً
ـ عليك أن تنسى لبعض الوقت حتى تنتهي مدتك.

ضغط على يدي بقوة فبرزت عروقه بجنون وكز على أسنانه بغيظ
ـ إن أمي ستموت خلال سنة، ولو بقيت طيلة الفترة هنا فسأموت.

وانهار وتعالى نحيبه لينهض بعض زملائنا محاولين تهدئته، مسح مخاطه بياقته المتسخة وتطلع إلينا متصنعاً وجوماً وقال بصوت واثق.
ـ سأخرجكم من هنا جميعاً.

فانطلقت ضحكاتنا، لكنه لم يمهلنا وقتاً طويلاً

ـ أريد أن تحركوا لي هذا الجدار من أوله إلى آخره، وبعدها سنهرب جميعاً. فازداد ضحكنا، ولكنه كان أكثر تحدياً وتصميماً، ولم يقابل إلا بالاستهزاء فسكت على مضض، وفاتحني بعد عدة أيام بأن أقدم له يد العون في اختراق هذا الحائط فتقبلت كلامه بشيء من العطف.

- أنت تعلم أن لكل سجين مساحة معينة في هذا العنبر ولن يتنازل لك أحد عن مساحته بلا مقابل، فصمت وعدت إلى مكاني سارحاً، وفي اليوم التالي استطاع شراء كراسة عريضة بواسطة أحد العسكر المتعاطفين معه وامتهن رسم السجناء كان يبيع الرسمة بريالين ولم يمض عليه وقت طويل حتى أصبح يمتلك بعض المال دفعه لأقدم سجين في العنبر وحصل على مساحة ثلاثة أمتار من الحائط. كان ذلك السجين قد ورث مترين من زميلين تم تنفيذ القصاص بهما وآل إليه المتر الثالث كهبة منحه إياه سجين أفرج عنه وأقسم أن لا يعود للسجن مهما كان الأمر. وبعد أن تمت تلك الأمتار الثلاثة بدأ يتوسع في الحصول على بقية الحائط.

الآن أذكر أن دمدمة الليل التي تحدث في عنبرنا بدأت تظهر بعد أن استطاع امتلاك أول ثلاثة أمتار من جدار العنبر.

صباح تلك الليلة التي رأيته فيها محفوفاً بالزنوج جاءني وحذرني من مغبة أن يزل لساني بالإفصاح عما رأيت، وخوفاً من تحذيره فقد التزمت الصمت ولم أبح لزملائي بشيء مما حدث.

ذات صباح استيقظنا فوجدناه يمسك بيديه صخرة غريبة الشكل شدهت حين حدثه أقلام قال إنه جلبها معه من أدغال أفريقيا من شجرة (موبي ادبا وباب) أعرق أشجار أفريقيا والتي تقدسها مجموعة من القبائل القاطنة في أدغال الغابات الاستوائية. تحدث الشجرة التي قذف بها نهر الخلود فبقيت مثمرة منذ ملايين السنين ومن أكل ثمرها أو أصاب جزءاً منها امتلك سر الخلود.

كان يتوقع أن نتدافع لمحو تلك الهيئات وقد أبدى حذر بجسمها في حجرته وعندما رأى مؤخراتنا لا تتزحزح من مواقعها أعاد نشر عيدانه وتشذيبها وأخذ يحصي أنسجتها من محلول لونه كلون الدم كان يخبئه بين ملابسه، ونهض في مواجهة ذلك الحائط وشرع في رسم هيكل لسفينة كبيرة.

التف النزلاء حوله مبهورين بإتقانه لرسمه العجيب ـ والغريب أن هذه الرسمة كانت تختفي من على الحائط عند دخول دورية التفتيش (وهذا ليس كذباً فقد كانت تشف ويبهت لونها فلا ترى) ـ وظل يوقف ليس بالقصير يرسم سفينته ويدخل عليها التعديلات المتتالية حتى إذا تم رسمه صاح:

ـ الليلة سوف أرحل فمن يصحبني؟

فتضاحك الجميع، ليجلو صوته الثاقب يحطم قهقهاتهم ويسخر مسامعهم كأداة تثقب مدببة على الجدران في الصخور الصلدة

ـ كفوا عن حماقاتكم ومن يرد مرافقتي فليتحرك

تخشب معظمنا، ومع صرخته الثانية كف بعض جدل حائرين ومضى يتطلع إلى هيئته التي تحررت وغدت أقرب لهيئة نمر ضار يهم بالانقضاض على من يحاول التحرش به فانقلب لنظراته باستسلام، ولكي لا يفقد رئيس العنبر هيبته فقد اعتبرها نكتة يمكن أن تدخل السرور إلى قلوبنا، هذه الجملة التي تعلقت بها كرامتنا المهدورة أنقذت كبرياءنا أمام بعضنا البعض، وسرعان ما تحولت إلى نكتة حقاً ليدخلها نزلاء العنبر كترويح عن أنفسهم وتحررهم من مظالمهم لبعض الوقت.

قام شربوكه مورعنا عند هيكل السفينة المرسوم وأمرنا بالوقوف

أمام المكان المخصص لكل واحد منا، وطال وقوف متململ الكثيرون من وقفتهم وانسحبت مجموعة كبيرة بعد أن أظهر شربوكه اللين مع من تخاذل في وقفته، حيث كان من المقرر أن نقف من الأصيل الى السحر، وقد استمر شربوكه في مقدمة السفينة وهو يتطلع إليها بلقة وتحريض على الصبر، وكلما تلاصقت قامتا صاح:

ـ رحلتنا ليست في حاجة للمتخاذلين، ومن لم يجد في نفسه الصبر فليغادر سفينتنا.

كنت متعباً، وتبادل الأشخاص بلا مواربة من جملته نعتاً التي كان يرددها بين الحين والآخر، وتجرأ الهيصي بالإفصاح عن سخريته.

ـ ركبت في راس العيد بمكرنا راكبين سفينة بحق وحقيق، يا جماعة فكونا من نكرته، يلعن أبوه على أبو السفينة.

فالتفت إليه بعين حارقة ونصف حاجبيه، وتمتم بنكتة مميعة بالشنشنة جعلت من رأها يكتم ضحكته لا إرادياً، وإن بقينا نلعن استجابتنا له في داخلنا ونلوم بعضنا على هذا العبث الذي نحن فيه. وبعد مضي ساعة تراخت مفاصل الخشبة وشعر بالإرهاق فصاح:

ـ يا جماعة والله لم أقف في صلاة مثل كل هذا الوقت، ولن أقف لأحد.

وتحرك من مكانه وقذف بجسده على فراشه مبدياً الإعياء، فصاح به شربوكه.

— ستندم.

فرد عليه بثقة.

— لو ندمت لا تحاسبني الملة.

وبعده انسحب الهمني، رئيس العنبر ثم تناقصت مجموعة كبيرة، ولم يبق في مكانه إلا خمسة أشخاص كانوا يحلمون بالهروب من حد السيف.

ومع الغروب دخل إلى الحمام ودلق على رأسه الماء واغتسل جيداً ولبس ملابسه الشعبية وجلس منشرحاً بعد أن أمر من بقي معه بالذهاب للاغتسال وظلت ابتسامته تنير وجهه وهو يحرض من انسحب على انتهاز الفرصة، لكن أحداً ما لم يكترث به، حتى أنا الذي ستهوتني اللعبة منذ البدء تراجعت وسخرت مع الساخرين، فقال بحزم:

— ستندمون في الصباح.

وعندما ستولك من عدم إجابتنا لما يدعو إليه جمع من وافقه ووزعهم من جديد على هيكل السفينة المرسوم على الحائط وأمرهم بالصمت حتى يحين موعد الإبحار، فجلسوا في أماكنهم صامتين بينما تقدم هو لمقدمة السفينة وأخذ يتمتم بوقار ومثابرة. لم تخرجه سخريتنا عن تمتماته وخشوعه، كانوا كأنهم كالخشب المسندة إلى الحائط، وعبثاً ذهب تبكيتنا وضحكنا، ولم يخرجوا عن صمتهم، فتركناهم على هيئتهم واتخذنا لأحوالنا

أخذ الليل يهبط ببطء وسعى نزاول لهونا كالمعتاد في اللعب

والأحاديث، والالتفات إلى أولئك المتحشرين في أماكنهم بصمت والتندر عليهم وعندما أطبقت الأمور عنا ونحن متصاحبين على ركاب السفينة، ومع منتصف الليل سمعت هديراً عالياً ورذاذ ماء مالح يبلل أجسادنا وصفارة قوية تنبعث في هجعة الليل وثمة سفينة تشق العتمة في موج متلاطم

١٤١٦

كتبت خلال عام كامل ١٤١٥

ماذا قال القميري؟

الشوارع محمومة بالناس، والكل محدق بصره في السماء، والدهشة كتزه على الوجوه بطلاقة.. كان حدثاً مثيراً لا يمكن تصديقه، ولولا حدوثه أمام أعيننا لظننا أنه إحدى القفشات الإعلامية التي يتلونا بها مؤخراً، وعلى أبعد احتمال أن يطلق الرائي ف بالوناً كبيراً لطفل في حلم تلهيه أحلامنا، خصوصاً أن إسماعيل أبو حمد قد توعد بإطلاق طائرة كبيرة يجهد له رباته الذين فقدهم في الألعاب المستحدثة، لكن هذا الاحتمال مات فجأة حين تراكض عليه القوم وهم يسكبون اللوم على العمدة الذي عهد شالة مخليي أثناء التراكض، وبقي بعرقة حداء واحدة وجرجم عن مواصلة تقريعه

– قدر الله وما شاء فعل

خرجنا جميعاً نركض في الشوارع والأزقة، كانت ملأى بالناس،

بدأ الركض من هنا ثم تواصلت الأقدام وتوالدت الأزقة والشوارع والميادين. أناس لو قدر لرئه من عل رأيتهم لجزم أن كارثة عظيمة حلّت بمدينته، حيث كان البشر يركضون إلى حدود في اتجاهات مختلفة كخلايا النمل، ولم يكن ركضاً منتظماً فطغت العشوائية وتلاطمت الشوارع وقد حبس أصواتنا كل يوصي الأخر بالركض في اتجاه مختلف ويبرى كثير من المشهد والاستغفار بعد أن صاح أحد الشيوخ

ـ والله إنها القيامة ولو لم تكن فهي قائمة لها

وسجد ولم ينهض متمنياً أن يقبض على تلك الحالة، ولم تخرجه من سجوده تلك الأقدام المتراكضة والتي كاد من الممكن أن تهرسه من غير أن تنتبه لسجوده.

وتنحت النساء عن أي ساتر يستر فتنتهن وقدودهن الممشوقة وخرجن فرعات حاسرات الأبصار والأفئدة، وهي حالتهن منذ لم يعرين الرجال بالنظر إليهن، أو استراق النظر لمخابئهن العميقة حيث كان كل واحد مشغولاً بهول ما يريه فقد شدت العيون مصعقة والأفواه تسيل بالاستغفار، ولم يكن أحد يمتلك وسيلة لإيقاف تدفق الفوضى التي دبت في حي، وقد استجابت النساء في بادئ الأمر بحمل أطفالهن عصدد أعناقهن من الأبواب والنوافذ وعندما هالهن المشهد براكض معهم، لكن الأطفال استشعروا الخوف فأسرعوا في البكاء لتباغتهم أمهاتهم البكاء بعويل فاجع كان المجمع في حالة اندهاش، واستكب كثير من المقولات التي لم تجد من ينصت لها ساعتئذ، وكان أكثرها ترديداً مقولة حسيني

ـ والله هذه دعوة أبو عبدالله.

كنا جميعاً نركض ولا نعرف بالتحديد إلى أين، فقط كانت عيوننا

معلقة في السماء وهي تتابع علوه وكأنه طائرة ورقية انقطع خيطها فأخذت تبتعد وتراقص في السماء وتركض للمدى البعيد

*

ما إن أغلقت درفتاها، حتى بقيت شقوقها تفصح عما بداخلها، ألصق الصبية عيونهم بتلك الشقوق، وتدافعوا كل منهم يزجر الآخر ليخلي مكانه مفسحاً المجال للآخرين وإلقاء نظرة خاطفة إلى داخل تلك الغرفة ذات الإضاءة الشاحبة. كانت تلك المشاحنات تحدث بصمت بينما العيون تتبادل النظرات بعصب، والأيدي تعبر عما يجيش بالصدور، مكتفين بجذب الصلات، أو التخبيط على ظهور الغارقين في تأمل ذلك الجسد المتصح.

ولم يكن ذلك الصمت الطارق بين الصبية إلا وليد خوف من أن تسمعهم زوجة القصيري فتخرج لطاردتهم وإلقاء الحجارة على رؤوسهم أو يلحق الشتائم بهم وبمن ولدهم على الأرض

كان المنظر مغرياً ببقاء العين ملتصقة بشقوق المزلاجين الخشبيين والتي انطبقت منذ عشرة أيام.

تم اكتشاف تلك الحالة العجيبة بالصدفة المحضة

لم يكن القصيري يترك صبياً يلعب بجوار بيته إلا وعلقه من أذنيه، وأشبعه ضرباً، بذلك تعود الصبية على الابتعاد في لعبهم عن بيته، ولم يشجعهم على الاقتراب إلا غياب القصيري المتقطع حيث كان يغيب ثلاثة أو أربعة أيام ويعود من جديد صاخباً عاوياً ككلب عقور.

ولم يكن أهل الحي يعرفون سبباً لهذه الغيبات المفاجئة والتي كان يعود بعدها ممتلئ الوجه وقد بدت عليه السمنة وبز دهن وجنتيه تركاً وجهه كمقلاة دهنت أرضيتها بشحم مكثف، مما جعل أحد الناقمين عليه يرد على مصحب عمدة الحي حين أبدى دهشة مطلقة

ـ والله القصيري سمن.

فرد عليه معقباً:

ـ الزبيب يا عمدة.

فزجره العمدة مستنكراً:

ـ يا رجل خاف الله.

لم يكن أحد يعرف أين يختفي في تلك الأيام التي يغيب فيها لكنهم ألفوا هذا الغياب المتقطع، وأطلقوا في صبحهم عن ترديد

ـ ماذا قال القصيري اليوم؟

مع هذا الغياب تمادى الصبية ومدوا رقعة لعبهم حتى توسط بيت القصيري ملعبهم، كانوا يعتقدون علم اليقين أن كرتهم إذا (سطحت) ببيت القصيري لن تعود إلا أشلاء ممزقة، واتفقوا أن لا تعتلي الكرة سور الجدار بأي حال من الأحوال

اليوم ارتفعت الكرة سور بيت القصيري واستقرت فوق سطحه، فتراكضوا هرباً، وظلوا ينتظرون كرتهم أن تقذف ممزقة، أو أن يخرج القصيري حاملاً عصاه ليطاردهم بين الأزقة ملوحة كعادته صائحاً بهم:

ـ يا أولاد الزنا . ألا تجدون مكاناً للعب غير جوار بيتي؟

وعندما تباطأت ست النعيمة في الخروج، وظل باب البيت موصداً، ولم يقذف بالكرة أو يخرج إليهم ليفسروا بعصابه، واقترعوا أيهم يصعد خلفها. كانت القرعة من نصيب ابن السعد، فجازف بعد أن قرأ المعوذات وسمع كثيراً هائلاً من تحذيرات أقرانه، ارتقى الجدار مستعيناً بأسياخ نافذة بيت القميري النافرة، وفي ارتقائه تخشب ولم يكمل الصعود، فكان أقرانه يحضونه على الصعود بتعبير مضاعف، تخالطه شتائم بذيئة.

ـ اصعد.

وتطاير سبابهم وهم يحضونه متمسكاً بأسياخ النافذة ويتطلع من شقوقها إلى داخل الغرفة. كان غائباً عن غضبهم بالتحديق والذهول وقد جحظت عيناه وفرّ الهلع منهما فسقط مفزوعاً وولى هارباً يتبعه أقرانه راكضين، حتى إذا هدأ روعه أخبرهم بما شاهد، فعادوا وغرسوا عيونهم عبر شقوق الدرفتين الخشبيتين التي انطبقت على بعضها منذ عشرة أيام مضت.

*

القميري شخصية محببة وظريفة تجر خلفها صفات مؤنثة، يصفه أهل الحي بصفات دميمة كالخسة والبذاءة وقلة المروءة والصفاقة، والدمامة. ورغم صفاته الخطيرة المتعددة التي يتجول بها بين الناس، كان محط اهتمام الحي، فالجميع يتناقل مقولاته، ويروجونها وهم يلعنونه ضاحكين:

ـ لعنك الله يا قميري، من أين لك كل هذه البذاءة؟

لم يكن له صديق وإن أبدى الجميع حرصهم على صداقته والترحيب به خوفاً من لسانه المتطاول في سير الناس كخنجر قصاب يعرف كيف يجري بين العصب والعظم. كان لا يتورع عن قول ما يشاء وفي أي مكان بوجه خَشِن تمرق بروده فظل مهابا ممن يخشى سلاطته وهادنه من كان يخشى على سيرته أن تصيبها دناسة لسانه. وبمقدرة فذة استطاع أن يتعمق في حياة من حوله ويعرف خباياها الدقيقة ويشرح في الشجرات الصغيرة والكبيرة، وقد أقسم أحد المسنين أنه من نسل إبليس وقد عمّ على من حوله أصله لأنه يسير في ملابس البشر.

ولم يكن يمضي يوم إلا وأحدث شجاراً أو علق فضيحة بهامة أحد أبناء الحي. ولكثرة شجاره وسبابه، أصبح من عادة أهل الحي أن يتساءلوا كل صباح:

ـ ماذا قال القميري؟

أو:

ـ ماذا فعل القميري؟

ولشدة بذاءته فقد وصفه لبروكي

ـ لسانه نقع في بيارة.

ولم تذهب هذه المقولة أدراج الرياح، فقد علم بها القميري، وكان له من السباب ما جعله يتمنى لو أن الأرض خسفت به قبل أن يسمع تلك الشتائم التي نالت عرضه وجعلته مضغة على ألسنة الحي

لم يسلم من لسان القصيري إلا العم عبده بائع الفول، فما أن يظهر في مجلس أو على قارعة طريق حتى يختفي القصيري من أمامه، صامتاً متمسحاً به بسمات درب أقرب للترحيب والمهادنة، وإن بقي في مكانه بش وهش في وجهه واستقبله مهللاً ومرحباً

– هلا بالعم عبده نور الحي وبركته،

ويبدأ بإطلاق الأيمان المشددة

– والله لو أن الأرض بها اثنان من أمثالك لسقتها بالمطر يومياً

فيرد عليه بجفوة:

– ولو أن بها اثنين من أمثالك لمطرها بالحجارة كل دقيقة

فينكمش مبقياً على أساريره وجهه منفتحة.

ولم يكن أحد يعرف السر الذي يجعل مفاصل القصيري ترتعد عند رؤية عبده الفوال.

وفي إحدى الجلسات سئل العم عبده عن السبب فابتسم واكتفى بقولته التي أصبحت مثلاً فيما بعد

– القصيري مثل الزنبرك، إن رفعت رجلك من عليه طار في وجهك.

كان طارئاً في كل شيء، ولا أحد يعرف بالتحديد من أين جاء، وإن كان البعض يصدق مقولة عبده الفوال الذي كان يعامله بدونيه

ضد أي قطط حارتنا ويقول عنه إنه من تلك السلالات الحقيرة التي تعيش على الهامش وتنتظر أي فرصة للتسلق وادعاء أصالة النسب، وكان دائماً ما يوصينا:

- القصيري مثل الزنبرك إن رفعت رجلك من عليه طار في وجهك.

ولم يبق أهل الحارة من تلك القوة إلا بعد غياب الأول، فقد ظهر في وجوه الجميع ولم يعد أحد قادراً على التعرض لزعامة نسبه أو صد مكائده الخفية.

وقد دأب على الظهور في كل المجالس، يشتم ويبصق ويتشاجر، كان عجيباً في كل تصرفاته فهو قادر على مناطحة الجميع إن أراد، ولا يتورع عن قول أي شيء، فاكتسب عداوة الكثيرين وإن لم يظهر تلك العداوة إلا القلة.

ومع غيابه انشرحت قلوب بعض من يهاب لسانه، وإن تحول السؤال عند قلة إلى السؤال:

- أين اختفى القصيري؟

※

أسرت زوجة القصيري حديثاً لجارتها، فأفشت به وسرى في الأفواه كالحمى المستعصية، كان الرجال في مجالسهم يتضاحكون وقد أبدوا كثيراً من الانشراح للرواية التي صاحبت الخبر

قالت تلك الجارة:

رأى القسبري في المنام أنه يحلق في السماء كعصفور، وكلما أراد أن يهبط إلى الأرض سمع منادياً يهتف به
ـ مكانك هنا.

وأوّل حلمه لزوجته بأنه بشارة لارتفاع قدره، لكنه أبدى تشاؤماً في الليلة التالية حين رأى الهدهد تمسح أظافره ولا يمشي له إلا على جناحين مهيضين، وأصبح لا يستيقظ من نومه عله يرى تفسيراً واضحاً لحلمه الأول، كان ينام ثلاث ليال، وإذا استيقظ عاث في الحي سباباً وشجاراً.

أما الزوائد التي لحقت بالخبر فهي كثيرة، وكلها تسخر من سقم عقل القسبري، أيسرها أنه سكير لا يفيق وأفحشها أنه لم يعد قادراً على إتيان دجاجة فيهرب إلى النوم خشية افتضاح أمره مع امرأة تعدت بوصمه يوماً وتهدده بتعليق فحولته الرخوة على مسامع أهل الحي.

ويرسمون مشهداً خفياً لهذا العجز قائلين: مصيبته جاءت من دعوة أطلقها عليه الشيخ أبو عبدالله، حين سخر من تلاوته على الملأ، فرفع الشيخ المقهور يديه إلى السماء داعياً: اللهم أتب أوصاله حتى لا يسير حسنة، أو أسقط عليه كسفاً من ليل لا يفيق منه

ويقسم الكثيرون أن نومه يطول لعشر ليال.

✻

ترك الصبية ملاعبهم وكرتهم الملقاة وعادوا لبيوتهم، يحملون الخبر

قال عبدالله الوسمي (وهو صبي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره)

- رأيت القصيري من خلال شقوق نافذته ينتفخ كـ(اسفنج) محشية بورم من جهة ويضمر من جهة

وقال عمر يحيى (١٢ عاماً):

- رأيت بطنه كالقبة كلما ضغط عليها سال الورم في أطرافه.

وقال خالد البكر (١٣ عاماً):

- كنت أحس أنه على وشك أن ينفجر في وجهي

وقال صالح سمعري (١٢ عاماً):

- كنت أظن أن القصيري أمسك بكرتنا ونفخها على هذه الهيئة، ولم أكن لأعرف أنه هو إلا حين سمعت ذلك من أصدقائي.

وقال حسن فهمي (١٥ عاماً):

- كانت سمنته كجمرة تشعل كل أطرافه فلم يبق منه إلا الرأس الذي استعصى على الشعل

وقال جمال الوردي (١٤ عاماً):

- لا أستطيع أن أنام فهو كالقنبلة سينفجر في أي حين

سمع الأهالي حكايات أبنائهم بشيء من الاستخفاف، لكنهم حين وقفوا على رقدة القصيري لم يستطيعوا النوم خشية أن

ينفجر فجأة، وكان كثير من جيرانه يتوقعون ذلك فوضعوا أصابعهم في آذانهم وتحضروا لاستقبال انفجار مدوٍّ، على أن يستبدلوا وضع أصابعهم على أنوفهم اتقاء نتن سيلتصق بالحارة زمن طويل.

≈

مضى الليل بترقب وتوجس، كان معظم رجالات الحارة يقفون أمام جسد القميري وعلى وجوههم علامات الفزع، فلم يكن بمقدورهم عمل شيء سوى انتظار الخاتمة التي لا يعرفون إلى أي حد يمكن أن تكون، ولم تركض شماتة في بالهم، بل نسوا كل شيء، وتعلقت على أهدابهم شفافية دمع كحبات لؤلؤ تزين محاجرهم، وتشجرت الدعوات من أفواههم كأغصان اللبلاب.

في الأيام الأولى من محنة القميري سالت شماتة مرة من أفواه بعض المتأذين من (زعارة) لسانه لكنهم سرعان ما تناسوا كل رذائله وجلسوا أمام جسده مكللين إشفاقاً وحسرة لما آل إليه، كان يراودهم بعض الأمل في أن يقوم طبيب المستشفى العام بعمل شيء يوقف ذلك الانتفاخ المريع، والتخفيف عنه، لكن الطبيب مكث معه بعض الوقت وأعلن عجزه حيال حالته الغريبة والمدهشة، وإن أبدى اهتماماً به من منطلق علمي لا من أجل إنقاذ حياته، وقد صرح بالمكوث معه لليلتين متتاليتين كان خلالها يرصد التغيرات المتلاحقة لجسد القميري ويقرأ في كتب جلبها معه لتساعده على فهم طبيعة تلك الحالة التي تحدث لأول مرة كما كان يؤكد لرجالات الحارة الذين أحضروا يتوسلون إليه عمل أي شيء يساعد في إنقاذ حياة القميري فكان في كل

مرة يقسم أنه لا يحدث من العدم شيئاً بعيد صاحبيهم وفي الليلة الثالثة خرج ولم يعد.

ولم يأسفوا على رحيله فقد تبادر إلى نفوسهم الشك في معرفته حتى أن أبا إبراهيم السعد أقسم على ذلك

ــ هذا طبيب لا يقدر على علاج بقرة بل كل أطباء المستشفى العام لا يعرفون سوى ترويج الموت.

وأعاد قسمه مرة أخرى مدللاً على جهل الأطباء.

ــ ألا ترون كل من دخل المستشفى لا يعود للحياة، وإن عاد عاد بعاهة سرعان ما تذهب به للقبر؟ فلا تأسفوا على رحيله، وسوف أتدبر الأمر مع العطارين فهم أكثر دراية بمثل هذه الحالات.

وأسف على تعجل رأيه حين تبرع العماري وحضر حكيم هندي، ساهم في شفاء حالات ورم عصيبة كما زعم الجمالي وقد وقف الحكيم الهندي على جسد القصيري وأخذ يهز رأسه، وتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة وهو يضع يديه على مفرق رأسه وخرج دافناً تمتماته من غير أن يرد على أسئلتهم المتلاحقة حتى الموقف قوى من حجة أبي إبراهيم السعد الذي قمر علياً كمن ظفر بغنيمة

ــ ألم أقل لكم إن هؤلاء الأطباء أشبه بالقصابين الذين يوكل إليهم مهمة إنعاش مزارع بائسة!!

وإزاء عجز الحكماء، حلوا إلى المداوين بالأعشاب مستعينين بأبي إبراهيم السعد، وقد ادعى بعضهم أن سحراً اختلط بأمعائه ولا حل لمعضلته إلا بسقيه دم شاة حبلى، وقد صبر في فمه المزعوم

قرناً من دماء شاة حبشي تبرع بها عدنان الصيرفي، تلك الدماء لم تمر بلعومه المحشور ما بين ترقوته وانتفاخ مؤخرة رأسه، فكان الدم يسيل من شدقيه معرضاً أطعمة أسرته للتلف، وإن عبر جدران بلعومه فإنه كحوت طفا على سطح بحر هادئ فيملأ الجدران والوجوه المحيطة به دماً مخلوطاً بمخاط معقود كخيوط معطوبة أصابها الحرق. وسيتجدد صراخ الحمدة الساخط والمتكرر في آن:

- كفّوا عن هذه المحاولات العقيمة وابحثوا عن وسيلة أخرى تنجي الرجل مما هو فيه.

وقد كفّوا عن تلك المهزلة وحملوا آنية الدم بعيداً وأخذوا يفكرون في حل آخر يوقف هذا الورم المتنامي، وعندما عجزوا عن الإتيان بحل شاف جلسوا أمامه حيارى يقلبون خبراتهم ويستجدون النصح.

ولم يعد أمام أهل الحارة سوى انتظار النهاية المحتومة وقد استعجلوا نهايته فقد أبدى بعضهم تذمره من هذه الحالة وتمنوا موته ليريحهم مما هم فيه مخبئين هذه الأمنية تحت القول: إن موته راحة له وأصبحت خشيتهم أن ينفجر فجأة ولا يعرفوا كيف يلمون أشلاءه المتناثرة ساعة التكفين، فقد استحال إلى بالون كبير وغاصت أطرافه في تلك الكتلة المتنامية والتي التهمت كل أطرافه وأحالتها إلى زوائد منتفخة مشدودة توشك على الانفجار. كان آخر طرف تمدد رأسه، فقد أخذ في الانتفاخ ملتهماً أذنيه وفمه وعينيه وغدا الرأس كبالون صغير ألصق ببالون كبير، وفقد السيطرة على عينيه اللتين جحظتا وباتا تثيران الرعب بورمهما وتآكل الجلد، وتشقق فمه معوجاً حنكه ذا الأسنان الصناعية وقد ضمر لسانه حتى غدا كحبة

المصدق المطلوب، وبدأ جسده يرتفع عن على السرير رويداً رويداً ويعلو، فصاح أبو خليل:

ــ اربطوه قبل أن يصدم بطنه بالسقف (عينك).

سخروا من هذا الاقتراح في البدء لكنه تحول إلى مهمة شاقة حين تمدد الانتفاخ بلغتهم حيزاً إضافياً من الغرفة، كانت أطرافه مشدودة كبالون نفخ أكثر من الحد المسموح به على تمكنهم بذلك لأطرافه من ربطه أو ملامستها، وفكروا في إخراجه من الغرفة لكن جسده زاد تمدداً وأصبح من المستحيل إخراجه من غير أن يحتك بعتبتي الباب وينفجر، وإزاء هذا، اقترح عمدة الحي إزالة سقف الغرفة لكن هذا الاقتراح لم يجد التأييد إلا حين أخذ جسده ينتفخ ويتمدد فضايق الغرفة وسدّ منها المتواجدون الواحد إثر الآخر حتى لم يعد بمقدور شخص البقاء معه في الغرفة، عندها أصبح اقتراح العمدة ذا جدوى، فأرسلوا في طلب عيسى البنا الذي نهض بالمهمة بعد أن أقام عليه متراساً يقيه تساقط الحجارة أو الأخشاب الناتجة من إزالة السقف، استغرق نصب المتراس يومين متتالين وبعد أن نشع السقف تماماً أزالوا تلك السقالة وربطوه بحبال لُفّت بقطن وصعد أربعة آخرون لاستلامه من السطح، وأثناء سلمه انفرط الحبل الذي كان ممسكاً به فحلق جسده في الفضاء وأخذ يتراقص ويبتعد كطائرة ورق مقطوع خيطها فأحدث تراقص وتبعد صوب بلدى الهيد.

٧

نبت القاع

منذ أربع سنوات لم يغير جلسته، يظل في مواجهة البحر يحدق في الأفق بترقب وصبر نافدين، يجلس جامداً كقارب ألقي به على شط هذا البحر ليستقبل الموج والطحالب وأخبار المرافئ الموحشة

من بعيد تلمحه كصخرة نحتت على هيئة إنسان مكوّر وبقي رأسه معلقاً في البعيد. ومع الغروب تكتشف أن تلك الصخرة ما هي إلا شخص رضي أن يسمّر نفسه يومياً بهذه الناحية مقعراً من شاطئ المدينة، تعبره الريح ورذاذ البحر وأصوات النوارس العالقة على مقربة من رائحتها.

ومن هناك، من ملتقى بحر وأمواج وأشرعة وقوارب، وصيادون وأسماك، وسقط الشمس في مداها، ولا شيء يأتي مما يموج به البال.

يخرج من بيته مع الهدولة وثمة دعوات تمسكها امرأة مسنة خلف نشاط عني مثل هذا الوقت تقل الأقدام المتجهة صوب البحر، فيحتم حذو المكان من الصيادين والباعة ويتسلل بمحاذاة البحر باتجاه الشمال مادا خطوات عجلة عابرا قوارب الصيادين المتناثرة على مقربة من ألسنة الأمواج الرخوة وثمة أمل يتقطر بخاطره فيختصر له المؤقد يحالي ابرة النظرات السريعة ويغرق بسرعة وارتياب، وإذا رأى شخصاً قادماً في طريقه تلملمت خطواته ووقف كمن يريد جمع أصداف البحر النائمة على امتداد الساحل، ويسلك الطرق البعيدة عن ممشى المارة حتى إذا أصبح في منأى من بنت العيون الضيقة والوجوه السمراء، أخرج كيس قمح صغيراً من جيبه وأخذ ينثر حبيباته للطيور التي تملأ تلك الناحية، ولم يكن ليتعب عنه مهما كان الأمر، ولا يصل إلى مكانه هذا إلا مع الأصيل حيث تتجمع طيور النوارس فيجاورها صامتاً ينمد عيناه مركبتان في الأفق بترقب وصبر طويل.

وحين يسمع الشمس تتمم انتحارها اليومي وتقبر قرصها في لندى، ينفض مؤخرته ويعود من حيث أتى لتبتلعه الأزقة الضيقة في جوف الحارة.

في البيت تستقبله بلهفة وتتلمس جسده الضرع، وبصوت محروق مغلهف لم ينضب منذ خمسة وعشرين عاماً تعود بهمتها القديمة:

– بشرا

فيضمها إلى صدره برفق، ويعيدها إلى موقعها الذي أصبحت

تألمه كما تألم رائحته، فتتحشرج الكلمات في حلقها فلا تقوى على شيء سوى الإجهاش بالبكاء، وتتمتم بلوعة
ـ لا تيأس.. سيعود.

في الماضي البعيد كان صغيراً لا يعرف سراً بهذه الدموع المتسكبة على الدوام والتي تركت عينيها يعصرون حالتين من كل شيء ,لا حركتهما المتلاحقة كان يسمعها في أقصى الليل وهي منتحبة وعندما كبر قليلاً كانت تسند رأسه إلى حجرها كلما سألها عن أبيه وتحكي له أنه سيأتي محلقاً ويهبط عليهما ذات مساء من إحدى الفرج، ولا تنسى أن تشير لتلك الفرج المستقرة بأسقف الغرف كان يظن أن هذه الحكاية ستنقطع وستنتهي أثرها حينما يكبر ظاناً أنها حكاية تنسجها لتستجلب النوم لعينيه المفتوحتين على الدوام (والتي أصبحت عادته حتى عندما كبر وأصبح رجلاً ثلاثينياً إذ ظل ينام مفتوح العينين) لكن تلك الحكاية لم تعطش بريقها السنوات الطوال ولم تنسها هذه المرأة التي يبست عيناها من مفلح الدموع.

في أحد الأيام وبينما كان يعيد ترميم المنزل ثارت ثورة لم يعهدها منها وأقسمت أن تترك له الدار وتهيم في أرض الله إذا لم يترك تلك الفرج على حالتها الأولى، تلك الفرج التي استبقتها في سقف كل غرفة من غرف المنزل، وكانت تصيح به
ـ أنسيت أن أباك سيعود إلينا من خلالها؟

ولكي لا يغضبها فقد استبقاها مشرعة للريح والمطر، فما أن تحل مواسم الأمطار حتى يتحول المنزل إلى مستنقعات يتم رفعها بكل

عنه، وكان يجد صعوبة في إقناعها بطرح تلك المياه الراكدة بفعل المطر حيث تصر على بقائها وهي تتمتم

ـ أجد فيها رائحة أبيك.

فيستجيب لها ويبقي مياه الأمطار راكدة دون أن يجرؤ على مسحها حتى تتحول إلى مياه آسنة تستجلب البعوض ودويبات الأرض. عندها فقط تأتي لتقول له:

ـ لن يأتي أبوك في هذا الموسم فامسح هذه المياه الآسنة.

وفي كل عام تمضي موسم الأمطار محلقة حلماً قديماً شاخ بذاكرة تلك المرأة التي لم تيأس من عودة زوجها الذي خرج ذات ليلة ولم يعد، فقد حكى لها قبل اختفائه أنه رأى نسراً قوياً يختطفه ويحلق به في الفضاء ويقذف به في عتمة البحار النائية. وبعدها بليلة واحدة وبينما كانت نائمة أحست بشيء يتحرك من حولها ويخترق سقف غرفتها لتلمح زوجها معلقاً في الفضاء كطائر عملاق يخفق بجناحيه بشدة صوب البحر. كانت تظن أنها تحلم فأغمضت عينيها وواصلت نومها وعندما أفاقت وجدت جرحاً في سقف غرفتها منبجساً ولم تجد زوجها.

وروت أنها قطعت الأرض تبحث عنه ولم تجد لديها إلا حلماً أخبرها شيخ بأن زوجها سيعود ذات ليلة من المكان نفسه الذي خرج منه وأوصاها أن تبقي بيتها مفتوحاً وأن تهيئ له عشاءه ليلياً فسيأتي جائعاً كمن لم يأكل طوال حياته.

كانت تروي هذه الحكاية يومياً على مسامعه حتى جزم أن الجنون

انتابت عقلها وتركها عبثاً يحمله ضمن همومه اليومية، فكان يسايرها وفق ما تشتهي، ونادراً ما يتذمر منه أو يثور لتصرفاتها الغريبة.

كانت تدور بيلب على تلك الفرجات وتنظر إليها لدقائق وهي تحمل شرشفاً طويلاً تغطي به تمري روحها حينما يأتي، فقد أقسمت أنه سيأتي عارياً كما تراه يومياً في منامها، ولم تكفّ عن هذه العادة منذ أن حجبت روحها عن البيت، فيما تتحذر من كثرة نومها لأنها يقول:

- يلح عليّ أن أمكث معه أطول وقت ممكن فلا تلمني فأنت لا تعرف أباك، إنه صارم والويل من يغضبه، وأنا أحبه ولا أريد إغضابه.

فيهز الابن كتفيه متجاهلاً، ويتركها وهي تلعنه لعدم تصديقها، وقد تمسك به معاتبة:

- أتظن أن أمك قد أصابها الجنون؟ يمكن أن أقرأ ذلك في عينيك ..قل ولا تخف.

وعندما تجده صامتاً وعيناه تركضان في تجاعيد شتى تتركه وسبابتها تركض في وجهه وصوتها يندح عميقاً متهدّجاً:

- سوف يأتي كما أراه ليلياً، ساعتها ستندم وتطلب عفوي ولن تجده

كانت في ما مضى تجمع مياه الأمطار المنسكبة من فرجات غرف المنزل في أواني خزفية وتسقي بها أزهاراً أعدتها لذلك وكلما نبتت بته ظنت أنه هو فقد أقسمت أنه سينبت كما تنبت أشجار الورد

وسيخرج من عنف إحناها، ليطير إلى السماء ويعود من حيث خرج، إلا أن خيبات الأمل كانت تلاحقها منذ أن تبتعد النبتة بساقها عن الأرض قليلاً حتى تذوي وتذبل فتنحسر كل محاولاتها لإعادة استقامتها، ولم تعبر هذه العادة إلا حينما حسبت أن حصير تتبول بفتك الأرض، فلجأت إلى جعل كل غرفة من غرف المنزل مهيأة لأن تنهض بحسرة لدور كان بيتاً غريباً، لسقف مبعجة وأرض مرروعة وامرأة تدور بشرشفها ليلياً لتنظر من تستر عورته

غالباً ما يتركها وهي لا تزال في ثورتها العارمة

ـ سوف يأتي كما أراه يلي، ساعتها ستندم وتطلب عفوي ولن تجده

≈

دأبت على المكوث في مقهى الشاطئ حيث يتواجد الصيادون ويتناثرون في أماكن مختلفة لا حديث لهم إلا البحر ومغامراته، والبعض منهم يشتغل هذا الوقت في رتق شباكه أو إصلاح قاربه الشراعي الذي مصحته رياح البحور الصعيفة بينما يظل دعي المقهى مرتعاً بلعب والضحكات وحساء الشاي وإن كانت العالية تأنس بالجلوس واجترار الحكايات القديمة

لم يكن يستهويهم الصيد بالقرب من المدينة، إذ تجدهم ينطلقون جماعات بتجاه السودان أو إثيوبيا وبالقرب من تلك السواحل يرمون شباكهم وآمالهم وأهازيجهم المتعلقة بالشجن وينتظرون ما يقذفه البحر لهم.

يقولون إن أبي كان يمتلك صوتاً رخيماً يشدو له أكسل الصيادين فيهز كالملدوغ بجذب الشباك ويشارك الصيادين ترديد الغناء

في هذا المقهى لا يجلس إلا من ارتبط بالبحر صيداً أو بحاراً قوارب أو باعة سمك أو محرجاً، ولم أكن لأحظى بامتياز في هذا المقهى لو لم أكن ابن ذلك البحار الذي كان كما يقولون صياداً لم يحتجب البحر مثيلاً له. فقد كان يعرف أسراره وخباياه وكثير منهم لا يؤمن بأن أبي يمكن أن يكون قد ابتلعه البحر كما يبتلع الأجساد الرخوة والتي سرعان ما يمجها ويقذف بها على سطحه لتطفو وتحتضنها الطير

ويرجحون أنه من حيتان هذه اللقمة التي تستقبل الغرباء وهي باسمة، أولئك الغرباء الذين يحولون بحرها إلى مستعمرات وأحواض لأسماك الزينة فلا تثور لكرامة بحرها، ولأنه بحار عنيد من هذه الميوعة وهجرها صوب المحيطات حيث يكون البحر فتياً

يومياً أجلس في هذا المقهى وأرتشف كؤوس الشاي وأستمع لتلك الحكايات العجيبة من مغامرات الصيادين حتى إذا دنا الغروب عدت إلى البيت لأجد أمي لا تزال توسوس بسيرة زوجها

منذ أيام قدم أحد الصيادين (السواديه) فكان محل حفاوة الجميع حيث أحاطوا به بإجلال وانثالت الحكايات ورائحة البحر، وأصوات الذين عادوا.

كنت على مقربة منه فكان يجالسني النظر بين الحين والآخر بشيء من التأمل والتمحيص. كنت أتأمله بسحنته العجيبة والمكومة على رأسه كحبل قطن متماسك وقد تناسقت مع ذقنه الكثيفة

المهدبة المخروطة ببياض ناصع. كانت عيناه شديدتي اللمعان تومضان ببريق خاطف ولهب مقتدرة على اختراق من ينظران إليه حتى أحسست به يتجول في خاطري، نظراته المتكررة أشعرتني بالضيق فهممت بمغادرة المقهى، إلا أن صوت شيخ الصيادين جعلني أتوقف وأستجيب له، تحركت باتجاهه، كان يجلس عن يمينه ذلك البحار السوداني وعندما وقفت أمامهما قال له

ـ هذا ابن الناخوذة حسين المعلى.

مد يده مصافحاً ومرحباً ترحيباً مبالغاً فيه، فشعرت بالحرج وبادلته التحية فتمتم وعيناه تنهبان وجهي

ـ كيف حال أبيك؟

فتحرك شيخ الصيادين في جلسته مصوباً النظر صوبه باستنكار

ـ ألا تعرف أنه متغيب يا شيخنا؟

فلم يعره اهتماماً، وغرس عينه في وجهي وهو لا يزال يبث ابتسامته الناعمة ..ويلقفني

ـ أما زالت الوالدة تنتظره؟

انتصبت وهززت رأسي بالإيجاب فقال

ـ لا تذهب أريد أن أحدثك.

فأوسع لي بعض الصيادين مكاناً بينهم وجلست أنتظر بينما كان يسرد بعض حكاياته مع البحر. بعد أن فرغ المجلس إلا من كبار الصيادين استأذنهم وانتحى بي جانباً، وأخذ يلاطفني، أوصاني أولاً بوالدتي خيراً

- كن رحيماً بأمك.
- بكتها لا تمل من ترديد سيرة أبي الذي مضى من زمن بعيد

فألقى كلمته بثقة ليرنخ كل ما يدعني

- سعود
- هل تعرف عنه شيئاً؟

صمت صمتاً مهيباً وإذ ظلت عيناه تتفرسانني بارتياب، وبنبرة مترددة تساءل:

- هل تريد رؤيته الآن؟

تشككت كثيراً بالرجل، وبتلك الحظوة التي منحها له الصيادون، فرددت بألية

- أظنه قد مات من أمد بعيد.

ابتسم ابتسامة مطمئنة ولم يعقب على مقولتي وتناول كأس شاي فارغاً وصب فيه ماء ورفعه إلى فمه وأخذ يتمتم عليه وأدناه من عيني لأرى رجلاً يجلس في قارب يحول شراعاً بمهل وإتقان وقد أصابه الضمور .كنت أحدق بدهشة، ولم أفق إلا على صوت البحار السوداني وهو يقول:

- هذا هو أبوك. انتظره سيعود من البحر كما ذهب إليه. إذا لم تنتظره فلن يأتي!!

قلت متلهفاً:

- متى سيأتي؟!
- هذا في علم لا أقدر على قراءته. ولكنه سيأتي

وقبل أن يهم بالتحرك قال:

- إياك أن تتأخر عن لقائه فسيكون أحوج إليك ساعة أن يصل.

ومسح مؤخرته ماسحاً يده بالتجاهي وضغط عليها بيده، ثم مضى ينهب الطريق بخطواته العارمة، وقبل أن يبتعد استدار إلي موصياً ومحذراً:

- عليك بالانتظار مع غروب كل شمس وإياك أن تخلف الموعد لأي سبب من الأسباب، وإذا تغيبت عن الموعد فسيلقى بيتكم من إحدى المرجحات حائر دائر هو روح أبيك فحذار أن تغيب وحذار أن يراك أحد.. مفهوم؟

استاذي فصحت به:

- أين أنتظره؟

كان يطلق الكلمات من حلقه:

- من جهة بزوغ نجوم الدب الصغير

لم تشفني إجابته فانطلقت راكضاً خلفه، فاستدار وقد بدأت على هيئته علامة الغضب:

- لا تتبعني ويكفي ما سمعت.

كانت كلماته حادة ونظراته عدائية، فامتثلت لأوامره ولم ألحق به، وواصل سيره الحثيث باتجاه البحر بينما كان كبار الصيادين يلوحون بأياديهم لوداعه.

من ذلك اليوم وأن أخرج يوماً أنتظر مقدم أبي

*

تحاملت على نفسي بقدر الاستطاعة كي أنهض وأتجه إلى تلك البقعة النائية من الشط، لكن هذا الدوار العنيف منعني بالرغم المحاولات العديدة التي قمت بها والتي لإسكات هذا الطنين الذي ينمو من الداخل ويتحول إلى دوار عنيف يعصف بكل كياني فلا أقوى على شيء سوى الإمساك بوسادتي ودفن رأسي بين طرفيها بينما كل شيء من حولي يموج ويدور ويدور ويتحول إلى دوائر تتسع وتضيق وتجذبني بقوة وعنف لأسفلها

كنت أبتعد لأتغلب على هذا الدوار ولا شيء يربطني بالأرض إلا صوت أمي التي كانت تواسيني بصوت حانٍ
ـ تحامل على نفسك فقد أزف الموعد.

أبتعد عنه كثيراً، وأغرق بدواري، أذهب معه بعيداً، وأمسك بنفسي كي لا يرحل فيجذبني وينطلق بي كالإعصار وأذهب، أذهب في اللاشيء، في أوقات خلاصه متعددة أسمعه، تستهويني، فأتباعد وأتباعد وأغرق في دواري، أرى بحراً عظيماً وأرى جسدي يتقاذفه موج يقصفه حيناً ويلفظه حيناً، وأن أنخبط وأرفع رأسي، وأصعد، أصعد وأبتعد قليلاً عن الدوائر السفلية بذلك الدوار من بعيد عاد صوتها ملحاً يرتدي الدفء القليلة، ويشد حيناً ويدني برأسي أحسست بيدها تمشط شعري، ورائحة عطر ليمون تأتت من أسماك تقافزت بالقرب من رأسي أخذت أبتعد بالإمساك بصوتها وكأنه حبل نجاة بينما كانت ترمي حيتان البحر وأسماكه

فجأة تحللت الأسماك في مصاحبتي وتعبر صوت أبي فسمعته تصيح بجنون:

ـ هذا طائر دارٍ يسقط علينا .انهض .. انهض انهض.

وكلما حاولت النهوض خارت قواي واتسعت دائرة الدوار فأسمع أبي يسبح باتجاه الشاطئ بصعوبة فتخاطفه الأمواج وصوته يصيح

ـ ساعدني انهض .. ساعدني .. انهض

وبتلعه دوامة كبيرة، فأراه يتلاشى، ليعود العتوق .. كانت والدتي تحاول إنهاضي وكلما حاولت النهوض يزداد الدوار، فألمح البحر يقذف بأمواجه ويسعى في الشوارع يدخل المنازل ويسحبني صوب جثة انتفخت على سطحه لأسحبها ونتلاشى سوياً في القاع.

جارتنا الصغيرة

ـ هل ما أقوم به إثمٌ حماقة؟

كانت أصغر مما توقعت، فهذه هي المرة الأولى التي أراها بوضوح، وعلى الأرجح أن عمرها لا يتجاوز العشرين عاماً على أبعد تقدير، وجهها جذاب بصورة لا تمكنك من معرفة سر جاذبيتها تلك، فقط تشعر أن ثمة جمالاً غريباً يسكن بين نمنمات الملامح الهادئة وكأنها لوحة رسمت بيد أحد عباقرة فناني القرن التاسع عشر

كانت أجمل بكثير مما حدثتني زوجتي، فهي فتاة دقيقة الملامح، خمرية البشرة، شفتها السفلى مسترخية وناضجة تكاد تجزم أن دمها سيقطر في أي لحظة، ولها عينان كالحلقتين، سدلت أهدابها حتى تشت للأعلى فأكسبتها سحراً فاتناً، بينما كانت سحنتها هادئة تشعرك أن ثمة ألماً خطّ جمالها فاستسلمت له بخنوع

كانت تقف في البلكونة لنشر غسيلها، وكان من عادتي أن أتراجع عند رؤية إحدى الجارات إذا جمعت حوادث طارئة، ولم يكن هذا ضعفاً أو ورعاً بل استجابة لخوف مبهم من أن تلحق بسمعتي أقاويل النسوة من أن عيني طويلة وجائعة، أو أن تخرج إحداهن وتبلغ زوجتي عن انسراح عيني، عندها لن تكف زوجتي عن تأنيبي وتذكيري بأنني ألقيت على شيء عظيم وأنها لن تغفره لي وستظل تعيّرني به كلما حاولت أن أكون سيد بيتي. لكن هذه المرة تخليت عن تخوفي أمام فتنة جارتنا الصغيرة، وأخذت أتطلع إليها بنشوة.

كان مقدمها إلى الحي حدثاً تناقلته النسوة بدهشة واستغراب، ففي أول ليلة لمقدمها تعالت صرخاتها ونحيبها وكنت أسمعها تصرخ باستغاثة محمومة:

- ارحمني..

وتذهب استغاثتها لتوقظ سكون الليل من غير أن تجد أحداً يجمع استغاثتها المبهمة في المسامع، وهذا لا يمنع إنصات الجيران لتلك الصرخات المحمومة بكثير من التحسر والاستغراب، كنت قد استويت في مرقدي وخاطبت زوجتي بدهشة:

- أهذا صوت العروسة الجديدة؟

فتهز رأسها كدمية تنتظر أن تنتهي تلك الهزوزة الركيكة لتوقف اهتزازها المتكرر أمام دهشتي المفتعلة. حاولت أن أعرف منها شيئاً عنها لكنها أبدت عدم معرفة مسبقة بها، وبكلمات مقتضبة أخبرتني أن العريس ليس صغيراً وقد سبق له الزواج مرات عديدة. كانت هذه الأخبار جرعاً مما تناقله نساء الحي عن الساكن الجديد نقلاً عن

زوجة صاحب العمارة، وقبل أن تطول استفساراتي أبدت امتعاضها من أولئك الرجال الذين يسعون لإشباع نزواتهم من غير أن يفكروا بمصير أبنائهم، ولم تحاول التعمق على ذلك الامتعاض خشية أن تنقلب ليلتنا إلى صراخ متبادل.

كان صراخاً أنثوياً يمتد في عتمة الليل بانكسار وألم مبرحين، وإزاء هذا الاستنجاد المحموم تقافزت عيوننا من خلال البلكونات والنوافذ فلا نلمح إلا عيون بعضنا الرابضة والمتربصة بتلك الغرفة ذات الأضواء الشاحبة والمطلة بستارة غامقة.

يبدو أن شعورنا بالخجل من تحديقنا المتبادل فانسحبت عيوننا إلى داخل جحورها واكتفينا بسماع تلك الصرخات المستغيثة والتي تكتم حيناً وتشق سكون الليل أحياناً كثيرة وكأنها هاربة من فم محكم الإغلاق، وشيئاً فشيئاً أخذت تتراخى تلك الصرخات وتجاور ألمها بصمت.

لم أجد رغبة في النوم فنهضت من مرقدي أبحث عن علبة الدخان وتركت زوجتي مسترخية كقطة أخذت تتلوى وتتهيأ لبسط أعضائها بما يحقق لها الاستحواذ على أكبر مساحة من سرير نومنا الخشبي، كنت أذرع غرفة الصالة بخطوات متناسقة في محاولة أن لا أتعثر بالتحف التي تملأ حيزاً كبيراً من جنبات الغرفة، خيل لي أن جرس الباب يدق، أرهفت السمع محاولاً إهمال صوت المكيف الذي يئز برتابة يقطعه بين حين وآخر صوت أقل ضجيجاً، كانت أضواء الغرفة معتمة فلم أتمكن من الحصول على علبة الدخان مما حملني على كبس زر الإنارة لتنهض زوجتي متأففة

ـ تحب دائماً إزعاجي.

اعتذرت بطرف لساني كطفل أجبر على الاعتذار فتكرر، كان صوت الجرس يصل متقطعاً، أكدت هذا زوجتي بشيء من السخرية
– ألا تسمع الباب، لم أنك تسمع صوت النساء فقط؟

لم أشأ أن نتبادل المناكفات، فأهملتها وهي لا تزال تتمطى على السرير، واتجهت مباشرة لأرى من الطارق، كنت أهمس لنفسي:
– من يكون هذا الزائر المزعج؟

رفعت صوتي من خلف الباب:
– من؟
– أنا جارك الجديد..

فتحت الباب على عجل كان يقف رجل خمسيني ذو جثة ضخمة لا تزال عالقة بملامحه آثار نوم بكر، وبدلة منهزمة كان يقطع الكلمات قطعاً
– عذراً للإزعاج

أبديت عدم الاكتراث، وأفهمته أننا لا نزال مستيقظين، فقال على عجل
– الأهل يعانون من حالة مرض فهل بإمكانك نقلنا إلى المستشفى
– سلامات
– الله يسلمك.
– خير

وقف أمامي مباشرة ووجهه يطفح بالضيق من خطلي ومحاولتي

إقحام نفسي في أمر لم يود الإفصاح عنه، فتداركت على عجل

- حسناً، فقط أرتدي ملابسي

ودعوته للدخول لكنه امتنع ووعد بزيارة أخرى في وقت مناسب، تحركت إلى الداخل لارتداء ملابسي، وتركت الباب موارباً، كانت زوجتي قد غادرت فراشها ووقفت في الصالة وعندما رأتني بادرت بالأسئلة.

- من الطارق؟
- العريس.
- ماذا يريد؟
- المستشفى
- طبعاً تبرعت بنفسك لأداء المهمة.
- ...
- تعجبك هذه التبرعات.
- ..
- لو كنت أنا المريضة لادعيت أنك متعب أو على وشك النوم ولأجبرتني على تحمل الألم مقابل أن تستمتع بنومك
- ..
- لماذا لا ترد؟
- ماذا أقول؟
- قل إنك مغرم برؤية النساء وإظهار شهامتك بهن.
- الذي يقف على الباب رجل وليس امرأة
- أنت تقدم السبت
- وأنت تقدمين سوء ظنك.

توجهت مباشرة نحو علاّقة الملابس، وكنا نخشى وشك أن نُسمع جيران أصواتنا لأنه ألقت بالثوب الذي كنت أرتديه في الصالة وليس هناك ثوب بديل. واستنجدت بي عصبتي للفاجعة بأنها دائماً ما تنهض معي وتقوم بكي ثيابي قبل مغادرتي للعمل وحدث أثناء تناولي لوجبة الإفطار، واختصاراً لوقت طويل فقد توجهت إلى خزنة الملابس وارتديت ثوباً مغرباً وهممت بالخروج، فأمسكت بي

- تريد أن تفضحني؟

وأصرت على أن تقوم بكي ثوب آخر وأقسمت أنها ستنجز مهمة الكي قبل أن أخرج من الحمام، فأصررت على الخروج بالرغم من تلك الكلمات التي قذفتها على مسامعي

- أنت دائماً تسعى لفضيحتي حين تخرج بثياب لا تليق برجل متزوج،ماذا يقول الناس عني؟ لا تهتم بهندامك.

عندما خرجت لم يكن جاري في مكانه، هبطت من سلم الدرج وانتظرت بجوار سيارتي بعد أن أدرت محركها، لكنه لم يظهر وفكرت أن أقوم باستدعائه، وبعد انتظار طويل صعدت إلى شقته وقرعت الجرس وانتظرت وأعدت المحاولة وانتظرت. عندها أيقنت أن جاري لم ينتظرني لو أنه سمع مجادلتي أنا وزوجتي فقرر أن يستعين بشخص آخر، فعدت إلى البيت لأجد زوجتي قد رتبت نفسها لخوض شجار استبقته من حكايات قديمة! كانت مستنفرة وفي حالة عدائية تفرض علي شتمها في مثل هذه الحالات، وبدأنا الشجار الذي انتهى بأن حملت وسادتي وغطائي ونمت في الغرفة المجاورة بينما كان صوتها يلعن حظها العاثر

في صباح ذلك اليوم انتشر خبر تلك الفتاة بين النساء ويبدو أن زوجة عبدالله حسين من قام بتسريب الخبر. وظل الخبر عالقاً في أفواه النساء لمدة طويلة حتى أن العانسات أقسمن أن لا يتزوجن فقد كان الخبر كفيلاً بجعلهن يفضلن العنوسة على الموت تحت ثور لاهث.

في بادئ الأمر كان خبر العروسة غامضاً حيث قيل إن بكارتها استعصت على زوجها مما حمله على وكزها بقوة جعلت الدم يتدفق بحرارة، وعلقت المسنات على هذه الحكاية بأن فتيات هذا الزمان أرق من ورق السوليفان، لكن هؤلاء المسنات سحبن هذا التعليق واستبدلنه باللوم على رجال هذا الزمان الذين يعجزون عن البكور ليدفعوهن محولة رخوة لا تقيمها إلا أصابع اليد.

ومع تدفق النسوة على بيت العروسة خرجت أخبار ملعونة كثيرة فروت ليلى جارتي الملاصقة أنه استبدل عضوه بإبهامه، وأخرى - زوجة من قام بنقله إلى المستشفى - روت أنه انبطح على المسكينة كمجنون كاسر مجز الشفتين وجعل مجراهما واحداً، وهنا يحضر لي قول زوجتي - فيما بعد بأنها:

- فتاة تسير كالضباع

لا أدري لماذا أصبحت جارتنا الصغيرة محل اهتمامي؟ وقد حاولت في بادئ الأمر أن أرفض ورود هذه الرغبة إلحاحاً كلما سمعت زوجتي تروي لي شيئاً مما سمعته في مجلس النساء عن هذه العروس. وتحولت مع الأيام إلى جدول يومي نتحدث فيه (ألفوها للحديث عنها من حيث لا تدري)، فروت أنها ابنة لأحد ضعفاء النعوس وقد باعها لهذا المسن مقابل عشرة. وروت أن هذه الفتاة على علاقة بشاب لم ينقطع عنها حتى بعد الزواج حيث تناقلت

النسوة ـ أيضاً ـ أنه يقف يوماً أمام منزلها كلما هجر زوجها البيت بلصص، وروت عن جارتها أن العروسة رهينة لإحدى بنات العريس وأنها كانت تناديه بلقب (يا عم) حين تحضر لزيارة ابنه

اليوم رأيتها، كانت أحسن بكثير مما حدثني زوجتي شعرت بوجودي وأنا أحدق في وجهها بانبهار فرمقتني بنصف نظرة وأطلقت ابتسامة خفيفة، فتشجعت وهمست
ـ صباح الخير

فطلعت صوبي بدلال وحملت غسيلها وانسحبت إلى داخل شقتها، وهي تتطلع صوبي، وبحثت غمزتها بعيني، فاتسعت ابتسامتها وحركت يدها مشيرة بالانتظار

.. من أي الجهات تأتي؟

وقفت على جثمانه، كان ممدداً باستسلام، مغمض العينين والفم، يداه مضمومتان على صدره، ودمه الذي كان يغلي باستمرار برد في أوردته وأحال لون بشرته السمراء الصافية إلى زرقة شاحبة

دأب على الحضور إلى المقهى لا يغيب عن جلسته إلا عندما يحل ضيفاً على مستشفى «شهيرة»، يجلس خلف شيشته ينفث الدخان بكثافة وهو يبثر وسوسته بصوت مسموع لم يكن يجالسه أحد، يظل في مكانه لساعات طويلة لا يقترب منه إلا النادل أثناء تغيير جمر الشيشة أو ترويحه بإبراد شاي معطش فيشفطه رشفة رشفة، تثير القشعرير رائحة عرقه معور وتلتصق بالأنف كجثة بين ميت وعندما أحضره لإهماله موصياً إياه بدلق الماء على جسده برد

- رائحتنا بصمة أخرى لا يعرفها إلا الزوجات وأنا

ليس لدي امرأة أسكن إليها فما الذي يدفعني للتخلص من عصمتي؟

وقع المغسل على رأسه يصب الماء صباً ويخلله بين مفاصله ويدعك محاشمه بالسدر، جفل عندما رأى عانته، وتمتم
- أكاد أقسم أنه لم يغتسل من أمد بعيد

رد أحد جيرانه متهكماً:
- هذه نهاية أمثاله، فهو لا يفيق وإن فاق سارع إلى العودة لغيبوبته بشراب مضروب.

طفحت صورته بجانبه وكمن أحس بخطأ مفاجئ سارع بالاستغفار
- أستغفر الله، اللهم ارحمنا برحمتك.

فردد جار آخر يترحم:
- رحمه الله، لم يكن فظاً كان عقله بعيداً عنه وهذا من المعوقين.

يبدو أن المغسل ندم على مقولته، فأعاد صب الماء وتدليكه وهو يدعو بأدعية لا يسمع منها إلا تمتماتها.

*

لم يكن يكره في حياته إلا اثنين الماء والصدمات الكهربائية

وكرهه للماء أمر عجيب بدأ معه من مراهقته، فما أن يغتسل حتى

تنتشر على صفحات جلده حبيبات مقيتة، فيظل يهرشها حتى يقطر الدم من تحت أظافره، ويسدل على جسده أغطية ثقيلة تعيد إليه الدفء، ففي أيام الشتاء لا يقرب الماء البتة

في غرفته شبه المظلمة احتفظ بجردل ملأه بالتراب يتيمم به في أيام الجمع والتي حرص على أدائها في المسجد البعيد. يخرج قبل الأذان الأول ويظل يعبر الأحياء حتى يصل إلى جامع الفلاح ويدخل المسجد ويظل في سجود وركوع إلى أن تقام الصلاة، فلم يكن يستمع للخطبة ويظل يجهش بالبكاء أثناء قراءة الإمام، وبعد أن يخرج ينسى المسجد حتى الجمعة التالية، كان يردد دائماً

- من الجمعة للجمعة كفارة لما بينهما، وأنا لا أؤذي أحداً

لم أره حريصاً على شيء كحرصه على أداء صلاة الجمعة، يلبس لها بدلة لوني الحمرة، ويتجمل ويقرأ القرآن ويضع خطوطاً على آيات كثيرة، وينام مبكراً، وقبل حلول الوقت يحيط راحتيه في جردل التراب المجاور مرقده ويمرر يديه على وجهه وأطرافه، ويتجه للمسجد - غالباً لا يعود لمسجد صلى به -

غالباً ما يكون محل اهتمام الآخرين، فركوعه وسجوده وبكاؤه تثير الانتباه، ويظل المصلون يحدقون به باحترام وباستنكار ويحصرون، بينما يظل غائباً عنهم في أداء طقوسه التي سكن إليها واطمأنت بها جوارحه، وما أن تنتهي الصلاة حتى يقترب منه كثير من المصلين ويدسون بيده نقوداً ويبادرونه وهو غارق في ذهوله.

في البدء شتم ولعن وصاح:
ـ لست مسكيناً!

فلم يكترث بصياحه أحد، يمدون له صدقاتهم، ويحاذرونه ناعتين له بالشحاذ، ثم ارتضى بهذه الهبات بطيب خاطر إذ وجدها وسيلة جيدة تعتقه من الاستدانة والتذلل لبائع العرق

كان يروي لي بعض مواقفه وهو يضحك بعمق ويردد
ـ لو يعرفون أن صدقاتهم تصبح سيئات في يدي لما أقسموا على منحي قرشاً واحداً. إن هؤلاء يطلبون الرحمة بصدقاتهم وأنا أحسب بها السيئات حين أشتري بها ما يخرجني من دنياهم

كان مخموراً طوال الوقت وإذا أفاق من وساوسه لم يفق من خمره، يجوب الشوارع والأزقة يهذي بصوت مرتفع ودائماً يردد
ـ يا ريح دلني من أي الجهات تعود؟

ذات جمعة رآه أحد الطيبين فأشفق عليه، واقترب منه مسلماً ونقده مائة ريال، ارتبك كثيراً حين رآها بيده، ومن شدة فرحة خلع سرواله وأداره في الهواء مراراً، كانت هذه بداية الشك في قواه العقلية، وعمقته تصرفات أخرى عندما أخذ يهذي بكلام مسكوت عنه، وتربصت به عيون كثيرة قادته في آخر مطافها إلى مستشفى الأمراض العقلية.

ما زال المغسل يصب الماء صباً، ويتمتم بالأدعية بينما كان جاراه المتواجدان يستعجلانه بضيق:

ـ قرب وقت الصلاة.

الماء ينساب من أسفل السرير الذي استقر عليه وجسده أزرق وتحجب عروقه الضامرة وكأنها حبال لم تجدل جيداً

(من الذي حدث الآن؟ ما بال جلده لا يستجيب لهذا الماء البارد المنسكب على جسده ويصب كسابق عهده؟ يا لهذه النفس تريد وتريد وتمضي دون أن تحقق ما تريد. كانت نفسه مهمة تريد أن تعرف ما لا يعرف. أتعبته خلال سنوات طويلة وهي خطة غامضة انسلت من بين ضلوعه وتركته للدود والتراب يقصمانه باشتهاء. ها هو كبيت عاجزة أمامه تركيبة كل أثاثه متأخذ يستقبل الريح والصمت بوحشة واستسلام. ها هو مسجى لم يتغير فيه شيء وكأنه استرخى للحظات ليريح رأسه من وساوسه التي لا تنام، صامت لا يقوى على شيء، أين ذلك الصخب الذي كان يتركه خلفه؟ من يصدق أن هذا الكائن كان قبل لحظات يمسك العالم كما يشتهي، ويرى أن الكون يخضع لإرادته، كان هنا قبل قليل ..قبل قليل فقط، ها هو يدخل الآن في مجرة جديدة من الزمن اللامنتهي، في وجود لم يأت أحد ليخبره عن ملامحه)

كانت وفاته مفاجئة لم يخطر ببال أحد أن هذا الجسد العارم سيسقط فجأة ويتوقف قلبه عن الخفقان وستتوقف كل تلك الصراعات المبهمة التي تحترك بداخله فجأة سقط وانطوت معه أفكاره المجنونة التي قادته مراراً إلى مستشفى (شهار) ليقضي شهوراً هناك ويعود أكثر تصميماً على أفكاره

استسلم جسده لمغتصب للعشق وأخذ يترجرج ببطء تحت تلك اليد الحازمة. وضع المغسل القطن في دبره وأذنيه واستصعب عليه فتح فمه، كان مطبقاً فكيه وكأنه كان يقضم من أسفل روحه، فتصلبت أوداجه واطبقت أسنانه على بعضها بقوة وقد أصر المغسل على فتح فمه بأي طريقة كانت ليضع القطن فوق لسانه، وعندما عجز طلب ملعقة وأخذ يحاول بطرق عدة فتح ذلك الفم المطبق. وعندما استعصى عليه الأمر، استعمل ربه، وكسر ثنيته وأدخل عجز الملعقة من خلالها وضغط على طرف الملعقة فسمعت صريراً كصرير الأبواب المهملة. وكلما ترخي ضغطه عاد الفم لانطباقه، وعندما عجز عن فتح ذلك الفم بمفرده صاح يستحث لمساعدته فأمسكنا بفكه الأسفل بينما ظل يرفع بالملعقة فكه العلوي لينفتح فمه قليلاً، استبشر المغسل وردد بحزم:

– يكفي هذا.

ودسّ قطعة القطن بين فكيه وحشرها حشراً.

حضر الغسل أنا والمغسل واثنان من جيرانه، وبعد انتهاء الغسل انسحبوا وبقيت معه، كان مجرد لحم بض بشاش، لا أدري لماذا تخيلته خروفاً تم استقدامه من مناطق بعيدة وظلت البرودة محافظة على ذلك اللحم من العفن. فجأة سرى ببالي أن جسده أخذ في التعفن وأن رائحته عفنة أحدثت ثقوب فضاء الغرفة، وأحسست أنني غير قادر على تحمل تلك الرائحة، وخوفاً من أن يحطل عقت لكيف ووجهته بأتجاهه. كنت أراه يحطل أمامي وكلما حاولت أن أطرد هذه الخيالات أجده يضحك من رعبي ويواصل تحلله وهو يضحك كعادته وصدى صوته يتردد

– كل شيء عائد فلا ترتعب.

استعذت بالله وتناولت مصحفاً قريباً - وضع فوق كتبه المتناثرة في فاخر تلك الغرفة ذات الأثاث الرث - كان قد ترك عليه خطوطاً كثيرة في مواقع مختلفة، فتحته وقرأت وقرأت، وقرأت. شعرت بالارتخاء وسلبت الطمأنينة لداخلي، وكنت لا أزال خائفاً من وسواس نبت بمخيلتي فجأة!

*

عاش حياة غريبة، وفي كل محطاتها كان يؤمن بنفسه، يؤمن بالعقل وفي هذا العمل به وسائط تنقله من مراحل العناء إلى التجدد والتشكيل، كان يرفض فكرة التناسخ ويضحك بعمق عندما يمازحني بتصور أن نعود بصورة حمار! ساعتها من تغضب إذا نادى عليك أي شخص بهذا الاسم، كان دائماً ما يكرر

– ثمة طريقة مثلى للعودة، إن الرياح تلف الكرة الأرضية وتعود ولا يستطيع أحد أن يجزم أنها ليست الريح نفسها التي عبرتنا قبل سنة أو أيام.

سارت جنازته سريعة صاخبة حيث اختلف حول الصلاة عليه فقد أقسم المؤذن أن أمثال هذا يدخلون النار من أوسع الأبواب، وكان الإمام متحفظاً ويردد:

– إن الله يعلم السر وأخفى

المصلون خرجوا ورفضوا أداء صلاة الجنازة ولم يفلح الصوت في تذكيرهم أنه مجنون وقد قال أحدهم: إذا كان مجنوناً فهو معفي من كل الواجبات، حتى نحن معفيون من الصلاة عليه.

صدمت كبّر الإمام بصلاة الميت لم يكن واقفاً في الصلاة سوى الخطيب وأنا وسائق السيارة التي ستقله للمقبرة ورجل عجوز لم يستطع النهوض فبقي لأداء الصلاة على أمل أن تمد أيدينا له وننهضه فيما بعد.

كانت صلاة قصيرة وسريعة وبعدها تعاونا ثلاثتنا على حمل نعشه إلى خارج المسجد وإركابه سيارة النقل الصغيرة التي كانت تنتظره. ونسينا الرجل المسن ظلم نساعده في النهوض

انطلقت السيارة بينما ظللت أنا والسائق نتبادل الآراء في أي المقابر ندفنه؟!

≈

دائماً ما نجلس في المقهى نشرب أحزاننا وفي أحيان كثيرة نتبادل النكات البذيئة تعليقاً على ما يحدث.

حياته ضحكة تبدأ وتنتهي بالمقاهي الليلية، في النهار يشعر بالاختناق فينام في غرفته بزنه، فإذا استيقظ قبل الغروب يخرج ليجوب الشوارع والأزقة، يجالس الناس ويسمع حكاياتهم وفي أحيان كثيرة يصحب الورافين ويظل يقرأ ويقرأ ليعود أكثر وحشية ورفضاً.

نتلاقى في المقهى بدون سابق موعد فأجده يسعل حتى تشعر أنه انتهى تماماً، وفجأة يعيق من سعاله وينظر إليّ بابتسامة منفتحة للمدى.

ـ الحياة موت دائري يا صاحبي.

ودون أن ينتظر جواباً يردد:
- ربما تتجدد في صورة ما وفي زمن ما

في أحيان كثيرة أعجز عن فهمه فأتركه يهذي بأسئلته، وأظل صامتاً أجتذب دخان الشيشة أتطلع إليه وهو يتصاعد ثم يتلاشى فيصيح
- انظر، دخان لا ينتهي، ينشطر ويتحول إلى دوائر تتمدد في الفضاء. كل الحياة دوائر لا تنتهي ونحن أجزاء ننشطر ونتوحد بصورة أخرى.

عندما وجدني صامتاً ضحك حتى اهتزت كل أطرافه، وصمت فجأة وأخذ يجر دخاناً كثيفاً.

بدأت صداقتنا منذ زمن بعيد، منذ أن كنا طلاباً بالمرحلة الثانوية، نتحرك سوياً ونقعد كرسيين متجاورين. في يوم قال مدرس التاريخ
- التاريخ يعيد نفسه

فرفع يده سائلاً:
- هل يعود الزمن أم الأشخاص؟

فرد المدرس، بل الظروف

ومنذ ذلك اليوم أصيب بلوثة وأصبح يقرأ عن الزمن، وعندما سمع أن السحرة ينتقلون إلى أماكن مختلفة في اللحظة نفسها تعلّم السحر، وضاع عقله بين ثنايا الأوراق الصفراء ولم يخرج منها إلا للمقاهي

صمت وقف على بوابة المقبرة كان جثمانه يترجرج بين يدي نفر تبرعوا بنقله إلى داخل المقبرة، ثم انشمق بسيح على جانب الدروب مهملاً المكان وحشة إضافية، وصمت عاتر تحركه مخلوف تحت القبور المترصة في خطوط متوازية وبعض الشجيرات التي نمت على بعض القبور بعشوائية، وريح باردة تخترق العظام عنوة وتنطلق هاربة من فوق الأسوار المتخفضة.

تحرك الحفار حاملاً مسحاته صوب صف مرقم برقم ١٢، كان ثمة قبر ينتظر شخصاً ما ليطلق عليه دفنه ويحييه في باطنه. هبط الحفار في داخل القبر ومددنا له بالجثة، تناولها ببرود وصاح بي
– انزل لتمويني.

تسرع وجيب قلبي، وأحسست بالاختناق وأنني سأقبر معه، دفعني من حصر القعر فنزلت على مضض، أسندته إلى يمينه وأحللت أربطة كفنه وأسندته بتراب متسخ، هزّ دمي من تلك التربة وانتشت طيبة آبانت علاً محمراً دا آرجل طويلة وحركة سريعة، رتقى سعدي بهمة فشعرت بالرعب، فصعدت على عجل، وأغلق عليه القبر.
– أحقاً انتهى هذا الراقص لكل شيء؟

كان معاونو الحفار ينتظروني وعندما وقفت في مواجهتهم اصطفوا لحزن وانتظروا أن أمد يدي لجيبي، فمنحتهم ظهري وخرجت من المقبرة حانقاً لحظي ودبيب السل يرتقي مرضي.

كنت حزيناً حزناً غريباً، ليس على رحيله وإنما لأمر كان يجول بالبال دون أن أقف عنه بالتحديد، لم أستطع الذهاب لأي مكان

عدت إلى البيت. كان يقف أمام أعدائي بكل التفاصيل وثمة كلمات تتراكض من شفاهه صوب أذني:

- الحياة دائرية يا صاحبي.

عندما بدأت أكتب القصة كان نزيلاً في مستشفى الشماعية، وبدأت صوري تزل ملاحقة للقصص التي أكتبها، ذات ليلة وجدته يقف على رأسي صائحاً:

- لقد أصبحت كاتباً

نهضت وحضنته بشوق، كانت هيئته تشي أنه للتو قد فقته يد به الأمراض العقلية، وقف متوناً حادقاً حمر الضحكات بملابس بسيطة مرتبة. أحسست أن وساوسه قد خمدت، وقبل أن أمد ظني بعيداً، جلس بجواري يحتضن كتفي مردداً:

- إن أبطال قصصك أحياء في زمن العزلة وكذلك نحن أحياء بصورة ما في ظرف آخر، كلنا أجزاء لا تتلاشى ونتواجد بصور شتى

أحسست بالعطف عليه وحاولت أن أبعده عن وساوسه فتبسم بحزن:

- أنت مثلهم تظن أنني مجنون.

٭

دأبت على زيارة قبره بين الحين والآخر، فكلما قادتني ظروف الحياة إلى هذه الناحية دخلت إلى المقبرة ومررت بقبره وجلست للحظات، وفي كل مرة أخرج أكثر فزعاً مما مضى، ففي كل زيارة

أحس بالنمل الأحمر يرتقي ساعدي.

لم أكف عن زيارته إلا بعد حين، ففي إحدى المرات جئت فوجدت قبره مكشوفاً وعلمت أن القبر يهيأ لاستقبال ضيف جديد بعد أن أصبح بزينه رميماً، بعدها أصبح يزور مخيلتي في كل حين.

☙

اشتهرت في المقهى بالنديم الذي لا يجالسه إلا الورق والحكايات، فما أن أصل إلى مكاني المحدد حتى يقبل النادل بطلباتي التي حفظها من كثرة ترديدي إياها، يضعها أمامي بصمت ويغادرني دون أن نتبادل التحيات.

اليوم لم أكن راغباً في القراءة أو الكتابة فأخذت عيناي تدوران بين وجوه نزلاء المقهى، كانت وجوهاً غارقة في بحور متعددة، ووجوهاً لا تقرأ فيها سوى التعب وفي أقصى الأحوال الصهباء، الغياب عن كل شيء.

فجأة لمحته في المكان نفسه الذي ألف الدخول منه وبالحركات نفسها ولكنه أكثر أناقة وتيهاً فتحت عيني على اتساعهما وركض فؤادي كما لم يركض من قبل، عبرني بهدوء بعد أن ألقى تحية قصيرة تهللت بحروفه كأس تحاورني وتصارحني:

ـ لقد تأخرت كثيراً.

ابتسم ابتسامته المترددة فبدت ثنيته المكسورة وهو يبتسم ويتناول بي

شهشه أحدهم، وأخذ يجر دخاناً كثيفاً ويطلقه في الهواء، تحركت باتجاهه، وسلمت عليه. كانت عيناه تركضان في وجهي باستغبار كمن لا يعرفني، همس بثقة:

ـ هل من حاجة أقضيها لك؟

أحسست بشيء يجذبني إلى الأسفل، رددت بآلية.

ـ كنتا أجزء لا تتلاشى وإنما توجد بصور شتى

فانطلقت ضحكات الموجودين، وخرجت من المقهى تاركاً شخوصي وأوراقي ونسمة ضحكات مستهجنة تتبعني



قصص نيلة

١

حين تنبت الصرخة

جميعهم حوله

سار بخيلاء، وبيده ذرع نحاسي صقيل ناعم الملمس ينتهي بحواف حلزونية مذهبة، وقاعدة من القطيفة الأخضر

زوجته تبتسم في وجهه كلما توقف وألقى ضوء عينيه على وجهها البيضاوي ذي الملامح الدقيقة كنسخة لمهرومة بتجاعيد قطنت أسفل شفتيها، وتركت ابتساماتها مسترخية كغصن في شجرة مائلة رفعه أبناؤه وهو يسير مختالاً بينهم، يتنقل بهم من غرفة إلى أخرى، كانت غرفة الاستقبال هي آخر الغرف، اختار البقعة التي تحمل التلفاز وجهاز الريسيفر، مغمغماً:

– أفضل أن يكون هنا.

–

هزّت البنت الصغرى وهمّت بأن تنفي جملة إلا أن نظرة أمها ألجمتها فاستكانت بمكانها تبادل النظرات المرتبكة مع إخوتها

في داخله استحسن ذلك الصمت المهيب من قبل أبنائه،

واستكمل:
ـ هذا سيراه كل من يزورنا وسيعرفون من هو أبوكم.

استعجل ابنه البكر لتفريغ تلك التربة من محتوياتها المنصوبة فوقها، ووضع الدرع هناك مستجيباً لأوامر أبيه الموجهة
ـ لا تضعه في الأسفل. يبدو أنك لست فخوراً به

وجذب ابنه بغضب مفتعل ووضع الدرع في أعلى التربة

وقف أمامه متأملاً موضعه، وابتعد عنه قليلاً قليلاً، جلس في أماكن مختلفة من المجلس تطلع إلى الدرع من زوايا متعددة ويغير من كل جلسة ليعدل وضع الدرع ويعود إلى مكانه يختلس النظرات لموقعه الجديد ويخاطب أبناءه بصورة آلية من غير أن ينتظر جواباً محدداً
ـ هه هكذا أحسن أليس كذلك؟

ومع كل همهمة كانت رؤوسهم تهتز مستحسنة لموقع جديد يختاره للدرع، صاح مستنكراً
ـ كل الأماكن هززتم لها رؤوسكم. لا أحد يركن لآراء الهازين رقابهم على الدوام.

لم يعلّق أحد منهم على مقولته، وإن أبدت زوجته شفقة على أبنائها

الذين صاروا في ما يعملون، وإن كان أصغرهم أقرب للتمرد على تلك اللحظة الواجمة، فسمّرت عينيه به كي لا يباغت أباه بكلمة تعكر خاطره.

أضمر غضبه، واحتضن ابنته الكبرى، مداعباً شعرها بحنان، بينما كانت عيناه تهبان كرياح وديعة على تلك الوجوه المزروعة حوله أحس أن أهل بيته المجتمعين ينتظرون كلمة ما، تطلع فيهم للحظات وأعاد نظره للمربع الذي استقر على الشرفة كتمثال معدني ورمز متحسراً على أيام مضت في البدء كان صوته متهدجاً ثم اعتلى أسماعهم بنغمة شجية، وذكريات كانت تهرب من لسانه كلما حاول الإمساك بها . الشيء الوحيد الذي استطاع أن يبهج به بحرم تلك الجملة الطويلة التي تعرف الحكايات ومراجعات ودروس رغب أن يستوعبها أبناؤه.

أربعون عاماً كنت خلالها مثال الموظف النشط أؤدي عملي بمثابرة كنت أحسن الإصغاء لرؤسائي وأنفذ مقترحاتهم كساعة لا تخطئ التوقيت . أربعون عاماً مضت كالحلم.

أحس أنه وقع في شرك الكلمات عند الحديث مستدركاً

- لم أكن أهز رأسي على الدوام ولكنني كنت أنفذ ما أؤمر به حتى لو لم يكن موافقاً هواي، فالوظيفة ليست رأياً شخصياً بل نظام وقوانين

يبدو أنه مل من الكلام، أو من براشق النظرات الجامدة المتشبثة عند أفواه وتقت بإبرة الصمت، حدق بالفرع ملياً وخاطب زوجته بنبرة وديعة

- إنه صقيل كأيام عملي، عليك أن تمسحه دائماً ليظل صقيلاً.

ومن غير أن تنتظر قفزت إلى مكان الدرع ومسحته بثوبها فبدا مجلوّاً

- ثوبك مو ركش سيخدش هذا اللمعان ألا تعرفين كيف نحترم المهم لمركة الهيث يانقاد؟

اختفت ابتسامتها، وارتبكت لدقائق، ثم انسحبت من مكانها لتعود إلى جواره من غير أن تنبس بكلمة. شعر بالضيق يعتريه، فواصل تهويجه دون أن يرد عليه أحد.

هذه المرة أحس أن الصمت الذي حوله مقبرة تناديه أن يدخلها بصمت يوازي جلالها

≈

تراه جذلاً، إلا أن خاطراً يتصل بالمصادفة وشى أن فرحته يشوبها كدر

≈

بعد يوم من استلام الدرع

لم يكن معه أحد، جلس في مواجهة الدرع، أخذ يقرأ ثانيةً الكلمات المنقوشة بماء الذهب والمكتوبة بخط الثلث

شهادة شكر وتقدير

بكل الفخر والاعتزاز نتقدم للوزارة بالشكر للموظف محمد علي بن يوسف على أداء عمله بكل تفانٍ وإخلاص، ونتمنى له أياماً سعيدة بجوار أسرته بعد أن قضى زمناً طويلاً من العمل الدائب والمخلص بيننا. كان خلال فترة عمله محل الثقة والتقدير من قبل رؤسائه الذين عمل معهم.

المدير العام

عمر عبدالرحمن البكر

أعاد قراءة تلك الكلمات المصفوفة على الدرج عدة مرات، كان يتوقف عند كل كلمة ويتأوه بحسرة، تتزاحم خواطره في تداعيات متلاحقة، وتعددت بتعدد به عن تلك الكلمات.

≈

أربعون عاماً انتهت بلوحة نحاسية

من كتب هذه اللوحة؟ هل كان فرحاً وهو يخط هذه الكلمات أم تم نقلها عن ورقة ممزقة نقلها بصورة آلية من غير أن يعرف صاحبها، أو يعرف كم تكبد من أحزان وأفراح طول سنوات العمل التي أمضاها بين أوراق وصفحات الأرشيف؟

هي شهادة براءة لمن أخرجك من السباق، هي رجعة فرح عامر يعقب جلسة بمنصب الشطرنج لساعات طوال تجري في جولة لحظات التوتر والترقب، واستطاع بمهارة أن يخرج قطعة أخرى من القطع الباقية والتي عليها أن تغادر مكانها من غير أن يشعر

بها المتناحرون. أنت الآن قطعة خارج اللعبة مقذوفاً كيفما اتفق، مستلقٍ على الهامش، ربما ستستعجل انتهاء اللعبة لكي يتم جمعك مع القطع المنتصرة والمهزومة لتعود بداخل صندوق مغلق مظلم تحلم بيد تنشلك مرة أخرى، تبحث بك، تتمسك بك وتجوب بك أرضية اللعبة. وفي لحظة تقرع رأسك بنشوة الظافرين لتسقط في جوار قطع سبقتك. تتكئ على أي جنب لا يهم نحن قطع تسير للأمام فقط للأمام وفي أحيان كثيرة تكون حركتنا طعماً للاستدراج وحين ننتهي لا يأبه بنا أحد حتى أولئك المترقبون سقوط الكبير

أربعون عاماً يقابلها درع نحاسي وكلمات باردة، وأسبات كسبحة نحن قطع على أي حال، قطع شطرنج، أو قطع جبن تركت داخل صندوق يقرضها فأر مهمته الأساسية الإجهاز على ورق

ك مجموعة كبيرة من المنسى التي طوحوا بها خارج اللعبة، ولكي يبدو ذوي قيمة فقد تم إقامة هذا الحفل، ولم يحظ بالتكريم سوى عدد محدود بعناية قررت الوزارة منحهم دروعاً تذكارية ومبلغاً مالياً بكفاءتهم خلال عملهم الطويل، بينما ظلت البقية الباقية مجرد أسماء وأرقام تخلصت منهم الوزارة ببلوغهم سن التقاعد، وإن كنت قد سمعت من وكيل الوزارة حديثاً استرقته أثناء مروري خلفه في إحدى المرات التي تواجدت بها في الطابق الذي يوجد فيه مكتبه وكان يتواجد هناك لإنهاء أوراق التقاعد. سمعته يقول لمرافقه

— لقد ارتأت الوزارة تكريم النجباء من أبنائها بينما الخاملون والتنابلة يكفيهم تحمل الوزارة لهم كل هذه

السنوات الطوال وكان الأجدر بها طي قيدهم من
زمن طويل، ولو كنت وزيراً لمنعتهم من استلام
الراتب التقاعدي.

هذا القول جبر خاطري، وهوّن علي تلك المشاعر الخانقة التي لازمتني منذ أن عرفت بإنهاء خدماتي، فتكريمي واصطفائي من بين تلك الأعداد الغفيرة بالتكريم هنا اعتراف يمنحني الرضا بقية العمر

كانت زوجتي أكثر فرحاً مني بهذا التكريم فقد جهزتني، منذ وقت مبكر، وأحسنت هندامي كما يليق بعريس يستقبل حياة جديدة، ورشت عطوراً على جسمي وثيابي، وداعبت بحسرتها وهي تطلق الزغاريد ولم تستجب لزجري:

– يا مرة .أنا ذاهب لحفل التقاعد وليس لاستلام منصب الوزير.
– ومن يكون الوزير .أنت أفضل من مائة وزير

وودعتني، وعيناها تشعان بفرح بكر

– عد سريعاً فالأيام القادمة أنت لي لوحدي.

هناك، في قاعة الحفل جلست في المقدمة، كانت معظم الأفواه تبتسم، مؤجلة كآبة الوجوم والوداع إلى ما بعد الانتهاء من فقرات الحفل، كلنا كنا نرتدي الملابس (الثوب والغترة) قلة منا التفوا بالمشالح وقد وجدت نفسي في حالة مرتبكة بذلك المشلح الذي أخرجته زوجتي من دولابه وهي تضاحك

– أتذكر هذا المشلح؟ إنه المشلح نفسه الذي لبسته في ليلة عرسنا.

تلفتُ يميناً ويساراً، كل المتقاعدين يحملون شيئاً من المرارة، فلحظات الفرح لا يمكن لها أن تظهر هكذا

حينما شد المدير العام على يدي كادت تطفر من عيني دمعة مالحة، دمعة بحجم ذلك الجهد الذي أمضيته داخل غرف الأرشيف، كنت أتمنى أن أقول له:

ـ أبقني، مازلت قادراً على العمل.

كنت أتمنى ذلك لولا نداء قديم نهض عجلة يجمع سقوط تاريخ طويل من الأنفة ورثتها عن مزارع عتيق، كان منشغلاً بجمع ابتساماته والتي حاول جاهداً أن يبرزها بوضوح لكي تحتلها تلك الكاميرات التابعة لبرنامج العمل. شد على يدي وأطلق ابتسامته، وحين غادرته الكاميرا استعجل إزاحتي من أمامه

كنت أول من نهض، فبمجرد أن ذكر اسمي الأول حتى قمت مستعجلاً، وكدت أن أتعثر في طريقي حينما تعثرت خطواتي المرتبكة لانشلاع المسبل على قامتي، وتشبثت به يدي وثنيت بالأخرى ممتصاً يده بحرارة إمعاناً في التودد، وأوشكت أن أقبل يده لعدت الابتسامة الصافية التي أطلقها في وجهي، كنت أظن أنه خصني بها دون الآخرين. وبعد أن استلمت درعي واستكنت في مكاني المخصص وجدته يوزع تلك الابتسامة على جميع من يصعد من الزملاء، اطمأنيت حتى إذا ابتعدت الكاميرات عنهم وجهه وعاد بيننا حرباً معلناً بذلك العبوس المنبع بين حاجبيه وضيقه المتبرم ممن صعد للسلام عليه.

بعد يومين من تسلم الدرع

استيقظ كعادته، وجد أن الجميع منشغل بالذهاب للعمل والبعض الآخر للمدارس وزوجته نائمة.

خرج إلى الشارع وعاد بصحيفته تمنى أن يرتشف كأساً من الشاي. تحرك لإيقاظ زوجته لكنه أشفق عليها فتركها تتمطى في فراشها كقطة حالمة. دلف للمطبخ وأعد إفطاراً يابساً (عيش وجبن وزيتون وتشكيلة مخللات) وجاهد في تجهيز كأس شاي، انتهى من قراءة صحيفته وقام بأعمال عديدة. رتب أوراقه القديمة، نظف أواني المطبخ، أصلح أسلاك الكهرباء المعطوبة، رتب أسرة أبنائه، مازال الملل يغزوه من كل جانب، أطل على الدرع مراراً، حفظ الكلمات المكتوبة عليه، تحرك في كل الغرف ووجد نفسه يحصي عدد البلاطات التي تغطي غرف بيته الخمس ثم انتقل لإحصاء عدد السلالم التي توصله بيته يومياً . وكم كان الرقم مدهشاً حينما اكتشف أنه وطئ كل سلم ما يزيد على ستة ملايين مرة (وصل لهذا الرقم بمسألة حسابية بسيطة أعانته للوصول إليها آلة حاسبة كان يستخدمها لتوزيع دخله الشهري).

صدمت زوجته عندما استيقظت ووجدته يمسح أرضية الممر المؤدي للمطبخ، فلفته بضربة على صدرها

ـ لا حدث يا أعز الناس.

وانكب على يديه تقبلهما وتخلصهما من تلك المسحة التي اصطبغت بألوان حالكة . كانت ابتسامته مشتتة أقرب للارتباك

ـ لم أجد شيئاً أعمله!!

بعد خمسة أيام من استلام الدرع

الهاتف يرن. تمتد إليه يد زوجته، تضع السماعة على أذنها وتلمع عيناها بفرح

- مكتب الوزارة تريدك.
- (أوه الآن تذكروا مدحت تركي للفصل! كنت قد تعمدت بتشامتي بالبقاء على رأس العمل لسنتين قادمتين. أجد علي مع جدار مهذب، فهل تراجعوا عن العزم لتسرع في حقي؟ لقد عرفوا قدري بلا شك).
- ماذا بك؟ لماذا تبدو جامداً؟ تقول لك الوزيرة على الهاتف

تناول السماعة وجذبها إليه محرضاً إياها أن تلصق خدها لتسمع اعتذارات الوزارة بعد أن وضع يده على سماعة الهاتف.

- (الآن سيسمعون مقدار ما تركته من فراغ. كنت جازماً أنهم سيحتاجون لي.

لكزته وهي تستحثه:

- ردّ على الرجل قبل أن يصيبه الضجر
- ألصقي أذنك معي لتسمعي

رفع يده من على السماعة وأصدر نحنحة مصطنعة. حاول أن يبدو صوته رصيناً قدر الإمكان:

- أهلاً، أهلاً
- أهلاً بك، كيف الحال؟
- جيد

- نحن نعتذر بشدة.
- لا عليك. كنت أعرف أنكم سوف تعتذرون
- حدث لبس بسيط وأنت خير من يقدّر
- أتفهم تماماً ما قد يحدث، وأنا متجاوز مطيب خاطر عن كل خطأ.
- هذا ما عودتنا عليه، وأنا مكلف أن أعتذر لك بشدة.
- يا رجل لا داعي للاعتذار.
- إذاً سنرسل أحداً لاستلامه.
- .. ..
- اتفقنا
- استلام ماذا؟
- الفرع.
-
- أنت تستحق مثله .. لا، لا بل تستحق أفضل منه
- . .....
- لقد حدث لبس.
- لبس؟
- نعم فالفرع لمحمد بن علي يوسف زميلك بالمالية. أنت تقدر هذا الخطأ بلا شك، فالأسماء متشابهات ونحن مقدرون صفحك.
- .
- أما بالنسبة إلى المكافأة المالية، فقد تقرر خصمها من راتبك التقاعدي.
- ..
- الآن يهمنا إرجاع الفرع، متى تحب أن يصلك مندوبنا؟
- ..

- .يصطحب فدرع عاضب وأقام عينا الدنيا. لقد بلغت شكواه للوزير.
-
- ما رأيك أن يصلك مندوب الآن؟
-
- أرجوك، لابد أن نستلمه اليوم قبل أن يصل مغيب الوزير
- . . .
- سوف أبعث مندوبا الآن
- . .
- لماذا لا ترد؟
- . .
- أتسمعني

صرخة أنثوية مصجوعة بيت في عصاو الغرفة لجسد رتمي في جوارها متخشباً

الممر

في الممر الطويل أسندت جذعي بيدي بينما كان نظري مشتعلاً بإضاءة تحذر من التدخين، وثمة خاطرة تعبر مخيلتي

- إنهم يحلقون هذه اللافتات ليمنعوا من التلذذ بإحراق صدوركم لمدرك تفك المهمة لهم. أليس من الأجدر أن تقوم بإحراق صدرك بدل أن يحرقه الآخرون؟ وبالية، أدخلت يدي في جيبي وتناولت سيجارة وأشعلتها ببطء مستنشقاً قدراً كافياً من الدخان وضغطته للداخل حتى شعرت أن أوردتي تشبعت وأن رئتي اختنقت بي فيه الكتابة تحت اشتعالاً أحسست به ضوح في صدري، ذلك الاشتعال الذي حاولت إخماده بسعال حاد، ولم أشعر بالاستمتاع إلا بعد أن سربت كومة كثيفة من

الدخان صوب تلك البقعة وأدرت لها ظهري ملقياً
بصري في ذلك الممر الكئيب.

كانت ثمة ممرضات يتطلعن باتجاهي وألسنتهن تقذف كلمات صخرية لم أفقه منها شيئاً، وحزرت أن سبب نظراتهن العدائية مبعثه دخان السيجارة المتصاعد من فمي المحمر. لم أعبأ بهن فقذفت ببصري بعيداً عنهن وإذ كانت بي رغبة بمبادلة عيونهن الضيقة تلك النظرات العدائية، فأعرضت عنهن خشية أن ينشب بيننا شجار فلا أقدر على أخذ حقي من امرأة. ألصقت سيجارتي بفمي ومررتها مزة قوية محاولاً إعطاءهن ظهري، وقبل أن يكتمل استدارتي لمحت إحداهن مقبلة نحوي وسبابتها لا تزال تقذف بتلك الكلمات الحجرية. اقتربت مني فلاحت منها رائحة عطر رخيص، كان فكها يعلو ويهبط بالكلمات دون أن أعير ما تقول، وعندما أشارت إلي بإطفاء السيجارة حرت وأخذت أبحث عن مكان لإطفائها وقد زاد من ارتباكي أن المتواجدين تقاربت عيونهم باتجاهنا وأخذ بعضهم ينظر إلي بازدراء كنت أود افتعال شجار مع رجل عبر وقذف بنصيحة لم أفهم منها إلا أنني قبيح للسمت، كانت تلك الممرضة لا تزال (تبرطم) وأنا لا أزال حائراً أبحث عن مكان مناسب لإطفاء سيجارتي. كان الممر لامعاً لا يوجد في طفايات أو شقلات يمكن أن أضع بها هذه السيجارة اللعينة، وفكرت بقذفها في الممر وفركها بأسفل قدمي لولا أن تراجعت حين لمحت بلاط الممر اللامع والمفروش في إحدى جنباته ببساط عالي الثمن وعرض بلوحات جدارية، وبعض اللوحات الزاهية ذات البراقيع المختلفة. كانت هيئتي تدعو للضحك فحيث كنت أسير كانت تلك الممرضة الفجة تتبعني بتعليقاتها التي لم أفهمها والتي جعلت بعض النسوة يتخلين عن رزانتهن ويضحكن بصوت مسموع، ولم أجد بداً من فركها

بين أصابعي متحملاً لسعاتها الحارقة، ومتذكراً تلك التعذيب التي كنا نقوم بها من إطفاء السجائر على جلودنا في بدء تعلمنا شرب الدخان. ولم تكتف تحت الممرضة بهذا الفعل ولم تتركني حتى وضعت سيجارتي المنطفئة بداخل جيبي، لترتفع ضحكات من كان يتابعنا، وتركتني بعد أن سمعت كلمات يبدو أنها درس في السلوك العام. بعد أن غادرتني استندت إلى جدار الممر حاضناً عكازي الأعمى بيدي ومقوساً إحدى رجليّ كمن يهم بتنفيذ عقاب صارم. في هذه اللحظة رغبت فتاة من أنحاء الممر كانت تمشي بريبة متأدبة وتتطلع نحوي لا تحيد عني، وكلما اقتربت حدقت عينيها بوجهي حتى إذا وازتني رعب (بيشتها) ودققت النظر في وجهي وكأنها تبحث فيه عن شيء ما، وظلت لبرهة تحدق بي. كانت عيناها السوداوان تنتظران شيئاً خصصاً عجز وجهي عن إمدادها به، وعندما رأتني جامداً كالجدار الذي استند إليه صكت وجهها وعبرتني كرصيف متهدم.

حينئذ أحسست رغبة في القصد، أثرها، فجذبت رجلي المقوسة وأطلقت سراح عكازي الأعمى الذي كنت أحضنه ببلادة، وربما امتدت يدي صوب عثرتي لإصلاحها فلدي أو كره جيداً أنني مصمصت طرف عثرتي وسوكت به أسناني الصفر، بعنف حتى لم يعد ثمة رد يساعدها على الانزلاق بين تلك الأسنان العريضة، ورفع جذعي المائل من على حائط الجدار وتتبع خطواتها المتثاقلة البطيئة. كنت أسير خلفها على مهل متنبهاً عدم اكتراثي بها ومتطلعاً بلاهفات الحيثيات المتناثرة على امتداد ذلك الممر. أحسست بوقع أقدامي خلفها، فتباطأت، فتسمرت في مكاني، كنت خائفاً وحائراً، يعتريني سؤال حاد لم أجد إجابة عليه

ـ لماذا الخوف حينما نسير خلف رغباتنا؟!

كان سؤالاً ساذجاً سقط عند التقاء حبيب حيث شبت ابتسامتها العذبة، وتوارت جانباً تعبث بحقيبتها اليدوية وتتطلع صوبي بحذر. ترحت شجاعتي حيث خطر ببالي أن شخصاً ما يتبعنا، فأسندت جسمي بجوار عيادة «الباطنية» وشعرت بحرقة من تلك العيون التي وجدتني أمامها تنشغل بوجودي للحظات كاسرة ملالة الانتظار، حين هتفتي وقد توقف أغلقت حقيبتها بحنق وواصلت عبور الممر، فتجاسرت وتبعتها، شعرت بالغيرة تلدغني حينما رأيتها تمعن النظر صوب شاب كان يذرع الممر ذهاباً وإياباً محتضناً نصفه الأعلى بيديه، فتباطأت خطواتها، ورمت صوبها متسائلة

– ألا يوجد هنا هاتف؟!

وعندما رأته مقبلاً نحوها، أسفرت عن وجهها، فلمحت الشاب يرفع عمله ويعيد إصلاحه، فسمعتها تهمس به

– كدت أن أقع مع حمار كان يحضن نصفه الأعلى بيديه

فرد الشاب وابتسامته تتألق:

– ألم نتفق على إشارة العقال.
– كنت أنتظره أن يحملها بكفه ظل يحدق في وجهي كثور أبله،

ثم جذبها من يدها صوب المصعد

– تعالي إلى هنا قليلاً
– لا .لا أستطيع أن أتأخر فأبي ينتظرني بالخارج، يكفي أنني رأيتك ودع الجلوس نوقف نمر

وألقت بين يديه مظروفاً له لون طرحتها، وعادت تتهادى كسحابة يانعة. اصطدمت عيناي للمرة الثانية فأسرعت أجمع نفسي المترددة:

ـ سنحت لك الفرصة فلا تفوتها

حدقت بصري بوجهها، وحدثتها بلباقة ـ كما كنت أتصور ـ

ـ سيدتي، يوجد هنا خالف.

انحرفت عن مواجهتي ورمت صوتاً غليظاً

ـ (انطلق)

وواصلت تهاديها بدلال، جارة رائحة عطرها الفاخر خلفها، وقبل أن التفت لمواصلة تتبعها جرفتني قهقهة عالية كانت لشاب يحمل مظروفاً بلون المرافقة، فأحسست بتضاؤل أمام ضحكته المرتفعة وأمالته المهيبة، فأسندت جذعي إلى جدار الممر وتجرعت سيجارة وأشعلتها جذباً نفساً عميقاً لأسكت سعالي الذي ند فجأة، وحين لمحت تلك الممرضة مقبلة باتجاهي وهي تتمتم بكلماتها الحجرية، لحسب أركض صوب بوابة الخروج.

رجب ١٤٠٨

الحل الوحيد

لم يكن يدور بخلدي كيف يمكن أن أشرح له بما أحس حيث كان يعبث على جسدي الهزيل بقبضته الفارعة، وقد أسقط بحلقي ملعقة خشبية وبين الحين والآخر يأمرني بأن أخرج صوتاً أشبه بالاستفراغ، قول " وقد سمعها مني مرارا، ففي كل زيارة لأذهب إليه يجعلني أضطجع على ظهري بعد أن تكون ممرضته قد أخذت قياساً لحرارتي، وضغطي، ووزني، ولا يعود متشبثاً عنه سوى تمرير سماعته على صدري، وغرس تلك الملعقة الخشبية أسفل قاع فمي. وكان يحدث هذا مع كل طبيب أقصده، والحرج وأن لا أزال أعاني من مرضي الغريب حتى أن كثيراً من الأطباء دعوني لزيارة إخصائيين نفسيين، وهؤلاء بدورهم أحالوني على أطباء عصبيين، وكان آخر مطافي عند هذا الدكتور الذي راق لي، ففي أول زيارة أجلسني أمامه، وأمطرني بالأسئلة بينما كان يدون كل ما أقول في (نوتة) صغيرة، قلت له

- أشعر بمرارة تلازمني أينما اتجهت. وبعد فحوصات، وتحاليل، وأشعة مقطعية وطولية، وملونة، لاطمئني برد
- أنت لا تشكو من شيء، ألا تستطيع أن تعود على هذه المرارة؟!

رددت عليه بعجز:

- لا أستطيع أبداً يا دكتور فهي تعصب في داخلي بمرارة، وتحيل حياتي إلى كابوس

حاول التخفيف علي:

- لا عليك، فكلما شعرت بها تناول قطعة سكر وأذبها بحلقك.
- لقد بلعت من السكريات أكياساً تجعلني بحراً سكرياً، ومع كل هذا فالمرارة التي أحس بها ترداد، وتتدفق في حلقي بمرارة بل على العكس فكلما أذبت من فمي شيئاً من تلك السكريات سالت المرارة في كل أجزاء جسدي حتى أشعر أن شعر بشري يستنشق هواءً مراً.

وخرجت من عنده بعد أن أوصاني بملاحظة حالتي ومتى تقلّ المرارة. ومع سكرري الحيي، إليه معاً يشعر بالسأم والضيق من حالتي التي أعيشه كنت أحس بذلك دون أن أجرؤ على مصارحته بما يختمر بداخلي، وما أن أضطجع على ظهري، ولا أعرف كيف أشرح له بي أحس بعد أن استنفدت كل الطرق الممكنة بشرح حالتي. أبهضني من رقدتي تلك، وتبسم في وجهي

- كيف هي الدارة (صحتُ) الآن؟
- أشعر بأن شيء يمر من مرزة تُصص كنهر لا يخسب
- ألم تلاحظ متى تشك؟

عصرت ذاكرتي، فستعصب تلك اللحظات على اللحيء، وبعد جهد وتركيز تذكرت بأنه تلاشى بمجرد أن أذكر الموت، فصحت به

- نعم، أشعر بطعمه يزول من عمي كلما تذكرت الموت، أو فكرت فيها

قفز من مقعده صائحاً يفرح:

- هو الحل الوحيد..نعم هو الحل الوحيد!!



4

غيـــاب

وصله إخطار من المدرسة بتغيب ابنه لأسبوعين متتاليين، فأصابته الدهشة، وتوجه إلى إدارة المدرسة مستنكراً، ومدّ بالخطاب إلى المدير متسائلاً:

- كيف هذا؟
- كما ترى.. فابنك متغيب عن المدرسة منذ أسبوعين.

احتدّ الأب صارخاً:

- ولكنه يخرج يومياً حاملاً شنطته، ويتجه إلى المدرسة بسعادة بالغة، ويتكدر كثيراً من يومي الإجازة
- قد يكون هذا صحيحاً لكنه لا يأتي إلى المدرسة

أخذ المدير يحدق بالأب المذهول، ولشعوره بأنه غير مصدق أردف

ـ إذا أردت أن تتأكد من صدق قولي فاذهب وانظر في جميع فصول الصف السادس ولن تجده.

عاد الأب إلى البيت حائراً في ما يصنع، وبعد تفكير عميق قرر أن لا يفاتح ابنه بما علم، وأن لا يشعره بشيء البتة

وفي صباح اليوم التالي استيقظ فوجد ابنه متأنقاً، ومتجهزاً للخروج، فتركه يمضي واقتفى أثره.

كان الصغير يسير في ممرات متشعبة ويتمهل بين لحظة وأخرى إلى إصلاح هندامه وفي بعض الأحيان يخرج مشطاً من جيبه ويسرح خصلات شعره القصيرة حتى إذا بلغ المنعطف الذي يؤدي إلى مدرسته تجاوزه وانحنى يميناً ليتسور جداراً قصيراً ويمد يده لاقتطاف وردة حمراء تدلت من غصن شجرة أحد البيوت الفخمة، وسقط على الأرض بتوازن إنسان تدرب على هذه الحركة حتى أتقنها، وأخذ يصلح هيئته نافضاً التراب الذي علق بثوبه ومعيداً تسريح شعره للخلف، وعندما رضي بهيئته حمل حقيبته وتابع خطواته حتى إذا بلغ إحدى البوابات توقف بجوارها، وأسند حقيبته إلى جدار تلك البوابة بعد أن أخرج منها منديلاً أخذ يمسح به وجهه ورقبته باهتمام، ووضع الوردة بيده اليمنى منتظراً في مواجهة تلك البوابة. مضت لحظات قصار، وصرّ الباب صريراً ثقيلاً لتخرج منه فتاة ترتدي (مريولاً) يشي بأن صاحبته طالبة بالمرحلة الثانوية وعندما أغلقت تلك الفتاة الباب تقدم منها الصبي، وناولها تلك الوردة، وحمل لها حقيبتها، وانطلق يسير أمامها، وعيناه تحدقان بشرر إلى كل عين تحاول اختراق (بيشة) تلك الفتاة، وهو يطلق سيلاً من الشتائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقها،

حتى إذا بلغت باب مدرستها ناولها حقيبتها، وتبعها بعين متلهفة
حتى غيبتها بوابة المدرسة عنه، فقعد بشنطته جانباً، وجلس بجوار
(حجة) كانت تبيع لوزاً سودانياً وسمسماً، ومشمشاً، و(سمسمية)،
وعيناه لا تملان من التحديق بتلك البوابة العريضة المغلقة، وكلما
تباطأ الوقت زادت حركته توتراً، وكثرت التفاتاته، وقد أمضى وقته
باللعب منفرداً بألعاب شتى، ثم انتقل إلى شجرة سدر وأخذ يقذف
حبيباتها الناضجة بالحجارة دون أن يكتفي لجمع ما تساقط، حتى
إذا مل انطلق إلى أحد الدكاكين وعاد يحمل مشروباً بارداً لم
يكمل شربه، وتبرع بالجلوس بدلاً من تلك (الحجة) العجوز لتجلب
زمناً من الوقت وتعود لتترك له بضاعتها وبعض النقود البسيطة التي
باع بها خلال غيبتها، وينطلق ركضاً في دوران محموم حول سور
المدرسة حتى إذا تجاوز النهار منتصفه، ورن جرس المدرسة معلناً
انتهاء اليوم الدراسي تزول شطحته ويتسمر أمام تلك البوابة يحدق
بالفتيات المتخرجات، وإذا أطلت تلك الفتاة من بوابة المدرسة ركض
باتجاهها وحمل عنها حقيبتها، وانطلقا عائدين، وقد أطلق لسانه
بالشتائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقهما!!

٥

غـزل

سيارة فارهة ووجهان صقيلان تمور منهما الصحة والشباب، وعطر منسكب وروائح ناعمة تغادر سيارتهما صوب الشوارع التي قطعاها في مطاردة العالم السوداء.

وكانت ثمة فتاة تسير وحيدة، وكلما خطت هزت محورها العيون، والأعناق، علّها مشية حمامة، وقد تتلوى، وتتمايل كغصن رطيب، تدك بمشيتها القلوب، وتمضي غير آبهة بما أحدثت من تأوهات وغير مكترثة بكلمات الغزل التي كانت ترشقها بنوعة.

سارا بجوارها، وخفضا سرعة سيارتهما حتى غدت تتدحرج أحدهما أخرج رأسه من النافذة وأطلق لسانه بجرأة

ـ لم أحسب أن القمر غادر السماء

جمجمت بدلال، وخطت برشاقة، وهي تداري ابتسامة كاذب كموج، وتستحيل إلى ضحكة، وانحطت إلى شارع أكثر انزواء. تبعها:

- (تمضي موصلك إلى آخر الدنيا إن أردت).

التفتت نحوهم، كانت عيناها - من خلف (الشبكة) - مغريان بالسير خلفها حتى بلوغ حدود التعب.

ضرب السائق مقود السيارة بعنف:
- (يوه اقرفتي بن هذه الأعذاب)

تنبه الشبان لوجود مجموعة من أهل الحي يتباسطون أمام إحدى البقالات، فأسرعا بتجاوزهم، وانتظراها غير بعيد حتى سبقتها وانحنتهم. أحدهم كان يترصد خطوتها من خلال المرآة، وهي تتهادى كموجة كسولة، عبرتهم ببطء. همس.
- لو تمنين بأنك ستمرين على دمي وتد.

ولم يستطع إكمال جملته فقد عدت أحد من الهيص، فتدحرجت السيارة في أثرها، وقذف أحدهما بورقة صغيرة باتجاهها، انحنت، والتقطتها بخفة، وواصلت سيرها.

قال أحدهما بنشوة منتصرة:
- (لقد غمزت الصنارة).

مسح السائق لمة تقافزت من جبينه، وترك همه يطلق ابتسامة ماسحة، وردة يبحث

ـ (اصحب الحلب يهدر).

سبقاه، وترجل أحدهما فاتحاً لها باب السيارة
ـ لا بد من إيصالك!

رمقت الفتاة صوبها ـ تخالطه ضحكة مكتومة
ـ (طيب يا محمد .. سأخبر أمي)!

تهاوى فجأة، وكتم دهشته بوضع يده على رأسه بذهول، وركب السيارة حاثاً رجله على الانطلاق، وهو يتمتم بحنق.
ـ مصيبة.. إنها أختي!!

وانطلقت السيارة، تفرس الرمل وحبيبات الحصى تتقاذف بعنف، وصمت رهيب يسيل بينهما

إمـــلاء

في أول يوم دخلت فيه إلى المدرسة صفعني وجهه.

كان يحتكم على وجه صحراوي عابس القسمات، ضيق البسمة، شحيح الطيبة له شارب كث، وعينان مزروعتان بكتاب الإملاء، وصوته الجهوري ذو الصرير الحاد يسحر رأسي بعصرة يتبختر في الفصل، وعصاه تهتز متعكر قلوب الصغيرة يدور بين طاولاتنا، ويملي علينا ونحن نكتب، ونكتب، ومع كل قطعة إملاء، كانت ثمة عصا تتكسر، ودموع تتناثر، وخوف يسيل من الأفئدة. يكفي أن تخطئ خطأً طفيفاً حتى يثور، ويحمل حظك بعصاه الريانة التي ما أن تلامس جلدك حتى يبلله بالدم.

وقف في مقدمة الفصل وأطلق صوته

ـ كان شهماً فارساً..

وعندما حد بصره في كراستي صعق. ورفع صوته غاضباً

ـ مسيحو ما كتب هذه الحمير (كان مسحيها ماسحاً..).. أهذا ما تفوهت به؟

فجلجلت تلك الأصوات ثانية:

ـ لا يا أستاذ

مشدني من شعري، وأوقفني بجوار السبورة مع أمره إياي برفع يدي وقدمي اليمنى.

في البدء أضعت حرفاً، وتعبت من الوقوف، ومع الأيام أضعت جملاً ولم أتعب. كنت قبل أن يمرر بصره على كراريسنا أخرج وأقف بجوار السبورة رافعاً يدي وقدمي اليمنى. ثم تبقى الأخرى حتى وقت الفصل كاملاً. تقطر وجهه بالبشر، وتطلع إلى وجوهنا بمكر

ـ جميل أن تؤدبوا أنفسكم

ساعتها شعرت بأنني في حاجة لأن أريح قدمي، فأسقطتها بعنف على صوته. حينها ارتفعت عصاه على هامتي ليتقطر دمي على حذائي الأبيض.

المضطجع

كنت أضطجع على سريري وأنا بتذمر مبتذل، وقد بلغت حداً من القنوط يجعل الحياة تتسرب من عروقي كما يتسرب الماء من شفاه طفل، ولم أكن لأصل بهذه الدرجة من التهاوي لولا أنني قد لمحت اليأس بادياً على محيا طبيبي المعالج، ذلك الهلِع الذي حاول تخبئته خلف ابتسامته الرقيقة، فيمرّ من بين أهدابه كجريان ينبوع صغير يصب في داخلي ويجرف كل طمأنينتي (طيبته) الخفيفة على كتفي، وكلماته المشجعة التي كان يذرفها على مسامعي كلما وقف لمعاينتي كانت تؤكد بلوغ المصب إلى نهايته

- لم يعد أمامك إلا أيام قليلة، وتغادر.

كنت أفهم هذه الجملة تماماً فهي مواساة مبطنة أو تعزية مبكرة وإن كانت تحمل أملاً عاثراً في إمكانية أن أعود لحياتي الطبيعية، فقد

كنت أعلم أنها أيام قليلة وألتحف بالتراب، والصمت، وأنسى هذا العذاب المرير الذي أحياه منذ أمد بعيد. بعدئذ عدت الحياة في ناظري أصغر من هنيهة طوّحت بها الريح، فلم أعد أكترث بشيء، وقد أطلنت كل شيء حتى، لظافري، شتائمي، وانحنائي للقذارة، وتذمري الذي لا ينضب إلخ. ورداد مكان من بهجتي، حيث يذكرني بصمت القبور الخالد، فلم يكن يشاركني هذا العنبر الواسع سوى عجوز أكل الشلل نصفه الأيمن، وأخذ السرطان يقضم نصفه الأيسر بتؤدة بينما هو لا يزال يعتني بنفسه وكأنه مقدم على حفلة عرس، فقد كان يدعو الممرضة لتشذب له ذقنه وشاربه، أو أن تقلم أظافره، وعندما يستكمل زينته، يدعوها لأن تصب عليه عطر الليمون، وكان لا يتحرج من غمز إحدى الممرضات أو ممازحتهن ودعوتهن لأن يقتربن منه، وأقسم أنه يستطيع مناكحة أربع نساء في وقت واحد. وأمام تبجحه السافر لم تكن الممرضات يبدين تذمراً من سيب لسانه، حتى أن إحدى الممرضات أصبحت تدعوه بعريس المستقبل فيسعد بذلك ويهش في وجهها كلما أقبلت أو أدبرت، ويطلق على مسامعها كلمات الغزل المبتذل الذي يستحي أن تسمعه من مراهق.

وكان يستقبل الأطباء والزوار بتنكيت لا ينتهي، ويسرد على مسامعهم أماني مبهجة لا يرقى إليها طموح من يركض بأوردته الحياة الجامحة، وكان يسألهم دائماً عمّا يجري في الخارج، ويطالبهم بتزويده بصور النساء، والشوارع، والحدائق. كان يضايقني بطلباته الغريبة، فقد دأب على رؤية الشروق والغروب كل يوم، ويثور ويزمجر إن تلكأت إحدى الممرضات عن أداء هذا الدور، بذلك كانت معظم الممرضات يأتينه في مثل هذه الأوقات ويقدنه بعربة إلى حيث تشرق وتغرب الشمس. وقد يزداد دلاله ويطلب

رؤية اكتمال البدر حيث يجلس في مواجهة نافذته المشرعة على الغصن ينظم قصائده للقمر والحياة، وعندما يعود بصاحبتي بإنشاده الركيك مكثت أستمع إليه بملل، وقد ينبع الضيق مني مبعداً أكثر فيه أن أقدمه بما يحاورني، فأتراجع حينما ألمحه مقذوفاً في سريره كعود متيبس ليس به من حركة إلا أثر الريح العابرة نثيثه، مع هذا لم أثر جمع عن الصراخ بحدة في وجهه مطالباً إياه أن يكف عن مصاحبتي. ففي ذات يوم صرخت فيه بحنق بغيض

- ألا تستحي؟ لم يعد بينك وبين القبر سوى شبر، وأنت لا تزال معلقاً بهذه الحياة، وكأنك بيت هرم يكابر دقات حول قلبي.

كان وجهه خالياً من أي معبر مراد من غيظي. أكمل بروح تبحث عن إيقاع

- أرى أن الخير وكل الخير لك أن ترقد بسلام كي لا تتعب الموت وهو ينزع هذه العصا التواقة للحياة، والمتشبثة بها كقرادة حقيرة.

وعلى غير ما أتوقع انفرجت أساريره وضحك بعمق، وعقّب

- لا يزال ثمة عرق ينبض فلم لا أستمتع بهذا الجمال؟

صحت حتى أحسست بألم يتمدد في حنجرتي

- أي جمال وأنت على ما أرى؟
- وماذا ترى؟

أعطني بروده. وقبل أن أواصل صراخي استوى طارداً نصفه الحي بابتهاج، ومردداً:

ــ نظر، لا أزال أتنفس، وأرى، وأشم، وأسمع. نعم ما زلت أتمتع بالحياة.

وعندما بلغ بي التعب مداه، طلبت منه أن يهجرني، وأن يقطع حديثه معي بتاتاً، وأن يتركني أتمتع بانتظار الموت كما أشتهي!!

بعدها لم يعد يحدثني، وانشغل بغرسته التي كانت تجاوره، والتي أصر على أن يكون لها حوض. وما إن نهضت بساقها قليلاً حتى تمادى بإصراره على أن تمتد جذورها في الأرض بدل أن تظل في (أصيص) زجاجي يحجب نوباتها قبل أن تثمر. وأمام هذا الطلب الذي أحال المستشفى إلى ضجة يومية لا تنتهي استجاب مدير المستشفى لطلبه، فحفرت عدة بلاطات من الممر وغرست مكانها جذور تلك النبتة، فظل يتعهدها برعايته في كل لحظاته، فأخذ يملي نصحه الحي، ويسكب عليها الماء، ويزيل ما يتجمع حولها من حشرات ـ على حد زعمه ـ وقد افتعل خصاماً مع إحدى العاملات واتهمها بأنها تعمل على إماتة نبتته وأمعن في اتهامه حين وصمها بالتكاسل والافتقار للأمانة والشعور بالمسؤولية وهددها بأن يشكوها لمدير المستشفى إن لم تقم بتنظيف الممر يومياً وتجنب نبتته مخاطر الحشرات، وقد استجابت تلك المسكينة لأوامره فكانت تحضر يومياً لتنظيف الممر وجلب الماء الكافي لري تلك النبتة التي نهضت وأخذت في النمو للأعلى. ويبدو أن سبب استجابتها لأوامر هذا المستبد هو ما كان يحدثه من شغب ينتهي بموافقة مدير المستشفى لطلباته، فقبل أسابيع طالب إحدى الممرضات بأن تنزل سريره إلى مستوى الأرض حتى يكون قريباً من جذور نبتته، فزجرته الممرضة بعنف مما جعله يحدث شغباً وصراخاً انتهى بأن أمر

مدير المستشفى بأن يساوى سريره بالأرض، وأن يخصم من راتب تلك الممرضة التي استهانت بهذا الحرف.

كانت الأيام تمضي رتيبة مملة تفوح منها روائح الأدوية والعطر الرخيص العالق بثياب الممرضات، وكان للصمت حضور طاغ، فهو القابع الوحيد في ممرات هذا المستشفى الكبير يمهر دمغته في كل حين ولا يتركنا طرفة عين، وإن قهقهته بأنها ستدعي إحدى الممرضات توبخونا بإحدى إيوها لمتومة لمنصب في يوم طويل، تستحفظ أكثر احتراماً بهذا الصمت المهيب، وأن نعد أنينا لأعماقنا بسرية تامة

كان جاري يشغل نفسه بأي شيء ممكن بالرسم والشعر، وتعلم في الطهي حتى أنه أخذ يتعلم الغزل والتطريز، وعندما برع فيه كان يغزل الشالات والمناديل ويقدمها كهدايا للأطباء، والممرضات، فكسب حظوة إضافية عند معظم العاملين بالمستشفى مما جعله يتقدم بطلب للإدارة بأن تقيم له معرضاً يعرض من خلاله كل أعماله المتنوعة.

كنت أشعر أن وجوده معي استحال إلى عذاب إضافي، فهو لا يهدأ ليلاً أو نهار ويصر أن يبقي الإضاءة بالليل لكي يتمكن من إنجاز أعماله المتنوعة، وحيال هذا الإزعاج المتكرر طلبت إن ينقلي أو ينقله من هذا المكان، فجاء طلبي مشفوعاً باعتذار رقيق، مبيناً بأن المكان الذي نشغله هو المكان المخصص للأمراض مستعصية! تدنت انشغلت عن جاري بأحزان ووساوسي التي لا تنتهي فكنت مع كل لحظة شهيق أوقن أنها ستكون الأخيرة، فأحبسها بدمعي خوفاً من أن ألفظ حياتي عبر الزفير البطيء، وكلما أمعنت في ترقب الموت

تزداد يأسي وكرهي لتلك المحطة التي تتباطأ في مجيئها، وما أن تأتي ساعة النوم حتى أحمل خوفاً من أن تسرق أنفاسي في غفلة مني، ولم تعد تقف في ذاكرتي سوى لحظة هبوب العاصفة المرعبة، عليّ وأصبح صدري يموج بالخوف الذي لا يهدأ، وعبثاً ذهبت أمصال تلك الإبر في نقض الذبول والضمور اللذين اجتاحا جسدي.

ذات صباح أفقت على صياح ذلك المجنون، فوجدته قد استوى، وبيده ثمرة غريبة، وعندما رآني أحدق به زاد صراخه، فنهضت من سريري - لأول مرة أنهض منذ أن قدمت إلى المستشفى - وصدري يغلي غضباً منه، وتوجهت نحوه وأنا عازم على ضربه مهما كانت النتائج، وقبل أن أصل إليه كنت أسمعه يصيح بي

- انظر لقد أثمرت شجرتي،

شددت يدي، وهممت بإلقائها على صدغه لكني تراجعت حينما رأيته يمد لي بتلك الثمرة، وهو يتحدث ببشر

- يسعدني أن أقدم لك أول ثمرة أجنيها من شجرتي

أحسست بالخجل إزاء ابتسامته الواسعة وتودده، فتناولت تلك الثمرة وعدت إلى سريري والغيظ لا يزال يأكل صدري. كنت أود أن أحطم رأسه وأرتاح من هذره الذي لا ينقطع، كان يتربص بي من مكانه، وعندما رآني أضع ثمرته جانباً دون أن أمسه حدثني عاتباً

- أود أن تفرحني وتتناولها كأول وجبة صباحية

كانت عيناه أكثر إلحاحاً من كلماته، فاستجبت لطلبه على مضض،

وأدنيتها من فمي وقضمتها، وعندما أخذت ألوكها شعرت بطعم بديد كالخيبة، فواصلت قضمها وأنا أرنو إليه بتمعن

٨

جفت الدنيا

جلس على كرسيه وأخرج رسالة أحمد يقرؤها للمرة العاشرة، وفي كل مرة يجفف دموعه وينهض ليلبيه نداء جرس الدكتور. في آخر مرة سمعت الدكتور يصيح به بانفعال

– لم تعد صالحاً لشيء والرأي عندي أن يعفوك من الخدمة

وعندما عاد كانت عيناه محمرتين، وشيء ما يمور بصدره حتى يخيل إليك أنه سيستحيل إلى تنور، جلس على كرسيه المجاور لمقعدي وأخرج ثانية الرسالة، وأخذت عيناه الدامعتان تركضان بين سطورها، فاقتربت منه وقرأت:

بسم الله الرحمن الرحيم
حضرة الوالد العزيز محمدين أبو ركبة المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نبعث رسالتنا هذه منتسبين من العلي القدير أن تصلك وأنت تنعم بالصحة والعافية وإن سألت عنا فنحن في خير وعافية لا ينقصنا سوى عدم رؤية وجهك الغالي. نخبرك بأن لابن جلال أصيب بالبلهارسيا ولم نتمكن من علاجه في البندر حيث طلب الدكتور أموالاً كثيرة، وقد بعنا البقرة لكي نصرف من ثمنها على بقائنا في البندر. نريد منك - أيها الأب الغالي - أن تبعث لنا ثمن العلاج في أسرع وقت خصوصاً ونحن نسمع من التلفزيون أنها تقتل مثل ما قتلت عبدالحليم حافظ - وفي ختام رسالتنا يبلغك تحيات الجميع

المرسلة

زوجتك التي طال انتظارها

أم جلال

ملاحظة: أبي الغالي:
قرأت لأمي رسالتك الماضية ولم أفهم معنى قولك: جفت الدنيا ولم تعد كما كانت.

أبي العزيز: لا تنس أن ترسل لي ما وعدتني به، فقد تعبت من زميلاتي اللاتي أصبحن يتهكمن عليّ كلما قلت: إن أبي سوف يرسل لي أساور من الذهب الخالص.

ابنتك المحبة

زينب بنت مصطفى أبو ركبة

حرر في ٦ - ٤ - ١٤٠٨

نبه لوجودي ومشاركتي إياه قراءة الرسالة، فاحتد وصاح بغضب

ـ ما تقوم به يسمى قلة أدب.

فشعرت بالخجل والحزن وركضت صوب الشارع لأمرق عجلتي بعيداً عنه.

تحقيق

حدق بي ملياً وحاول أن يبدو لطيفاً، أجلسني بجواره، وناولني ورقة من رزمة الأوراق المحشورة في مقعده، وبتودد همس:

- اكتب
- ماذا أكتب؟
- اكتب حالتك النفسية

تناولت الورقة، وخططت خطاً عريضاً

قرفان

انطلقت من شفتيه ابتسامة مرتوقة، ورفع غترته بيده اليسرى

- كننا ذلك الشخص، اكتب كلمة أخرى

وناولني ورقة جديدة، فأمسكتها وتمهلت، فدعني
– اكتب ولا تحاول البحث عن كلمة معينة، اكتب ما
يخطر ببالك مباشرة ..اكتبه

فكتبت على الفور:

نكتة

– جميل: اكتبها الآن
– أقصد أن الحياة نكتة

أبدى تذمره. لا أريد أن تبتعدا عما جئت من أجله

لم آبه رغبتي حتى تقول (عما جئت من أجله)، ومن هو ذلك الذي
جئت من أجله؟
– أنت تجيب فقط.

ناولني ورقة أخرى. قلت نكتة، أكتب أقرب نكتة تخطر ببالك

قال: لا أعبه على مسامعك وكتب

رد بحزم: قلت اكتبه.

أمسكت بالقلم وكتبت:

في أحد العروض العسكرية اصطف كبار الضباط للسلام على
رئيس الجمهورية وبينما هو يتفحصهم كان بمعيته قائد كبير يقدم له

كبار الضباط المستقبلين به بينما كان الرئيس مركزٌ نظراته على رتب الضباط ليصافح كل واحد وفق رتبته مكان القائد الذي بمعيته يقول له: قائد مشاة، قائد مظلات، قائد كتيبة، قائد طيران

فجأةً لمح الرئيس قائداً (أحول) معلقاً عدداً كبيراً من النياشين وكانت نياشينه تفوق جميع زملائه فاستفسر الرئيس متعجب عن صاحب هذه النياشين.

ـ قائد أحول وكل هذه النياشين على إيه!

فأجابه القائد المصاحب له على الفور: إنه قائد التصويبات العشوائية سيدي!

آآآ هـ هـ هـ

لم يجد استجابة لفهمهاتي، فصمت فجأةً بينما حدق في ملامحي بعمق

ـ من يمتلك هذه الروح يجب أن يكون سعيداً؟

ـ . . . . .

ـ إذاً ما الذي يضايقك؟

ـ الوجود.

ـ لا تريد فلسفة.

هذه ليست فلسفة، لو فكر أحدنا قليلاً لما احتجب بكل هذا الكم من المسائل.

ـ أي مسائل تقصد؟

ـ ألا ترى أننا نأكل بعضنا؟

ـ جيد

- أنت مثلاً تضيق الخناق علي من أجل أن تثبت شيئاً ما لا أعرفه، وفي كل مكان ثمة شخص يحفر لأخيه، بينما الحياة أقصر من أن نقضيها في السعي للتبادل
- لقد انحرفت كثيراً عما نحن فيه
-
- اكتب كلمة أخرى.

دفع بورقة جديدة وهو يوصي كما اتفقنا، اكتب من غير أن تفكر
كانت الورقة بيضاء وصقيلة، أمسكتها برفق وكتبت

طز

انتعش ورفع حاجبيه وترك ملامحه تتعكر كما يحلو له وقال

- طز لمن؟
- للحياة برمتها، فليس هناك جدوى من أي شيء، لذلك طز لكل شيء.
- كل شيء .. كل شيء؟
- نعم كل شيء كل شيء.
- حسناً

وانكب على كتابة تقريره، وعندما انتهى أدخله في ظرف ناصع البياض، وناوله للعسكري الذي كان يرافقني، وأوصاه أن ينتبه لي في الطريق. وبهمة بالغ فيها أعاد العسكري إليّ قيودي، وعبرنا ممراً طويلاً قبل أن تلفحنا أشعة الشمس المحرقة

وأمام الضابط وقفت حائراً وتجرأت وسألته

- ما الذي عملته حتى أقاد كالمجرمين؟

نظر إليّ باستخفاف وأردف: ستعرف بعد قليل.

وفي لحظات وجدت نفسي أركب في سيارة لتنطلق بي بسرعة قصوى، نصف عشر دقائق وهي تنهب الأرض نهباً، نصف ساعة، ساعة، وبدأ الدوار يتملكني وظللت لنصف ساعة أخرى أعالج الغثيان بكل الوسائل، وعندما توقفت السيارة، وجدت نفسي أدلف من بوابة كبيرة كتب عليها بخط عريض

مصحة الحالات النفسية بالطائف.



صدر له:

حوار على بوابة الأرض مجموعة قصصية صادرة عن نادي جازان الأدبي ١٩٨٤

لا أحد مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ١٩٨٦

ليس هناك ما يبهج مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ١٩٨٨

حكايات المداد مجموعة قصص للأطفال صدرت عن نادي جدة الأدبي ١٩٩٤

الموت يمر من هنا رواية صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩٥

مدن تأكل العشب رواية صدرت عن دار الساقي بلندن ١٩٩٨

من يغني في هذا الليل مجموعة قصصية صدرت عن دار الراوي بالدمام ١٩٩٩

الأيام لا تخبيء أحداً رواية صدرت عن دار الجمل ٢٠٠٦.

ذلك البعيد رواية (تحت الطبع)



عبده خال

الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة



مع الساعة الواحدة والنصف تكون قد أنهت دوامها المدرسي، يصدف بكل ما في يده ويظل منتظرا عودتها. تقف السيارة أمام المغسلة تماما. في هذه اللحظة (بالذات) تكون عيناه منفتحتين على اتساعهما فحين تدفع الباب تظهر ساقاها نافرتين من تلك الغلالة السوداء فتبين قدمان ممتلئتان مستديرتان تنتهيان بحذاء يتغير كل يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم عودها طاعنا الفضاء بقامة فارعة رطبة، تلملم عباءتها على صدرها مخفية كمرتين تدرتين في استوائهما. تعبر الرصيف تاركة جسدها يراقص الهواء والأمكنة بينما تتوقف رائحتها لتحرس مشيتها وتثبت الأمكنة في مواضعها كي لا تتساقط حجارتها كمدا على احتذائها. في كل هذا الارتباك يزهر بمقدمها بيت واحد إذ تدس قدمتها في بوابته الواسعة فيبسمها ويعبس للدنيا بإغلاق دفتيه.

من الكتاب.





ISBN 9953-21-070-5

9 789953 210704